

دكتور محمود محمد محمد عمارة
جامعة أمّ القريّ

فقه الدعوة

من قصّة موسى عليه السّلام



السلام العالمية

للطبّوع والنشر والتوزيع

٢٢ شارع الفكر، باب الشرق، ش. ٧٢-٢١

دكتور محمد محمد عمارة

جامعة أم القرى

Iniarah, Mahmud Muhammad
Mahammad

فقه الدعوة

من قصة موسى عليه السلام

السلام العالمية

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٢ شارع الفلكي، الرياض، ت. ٣١٠٧٣

دعاة يخسرون القضية

عندما تتحول النصيحة في منطق الداعية الى فضيحة .. فان ذلك مردود الى واحد من احتمالين :

أما أن الواعظ لم يستكمل عدته العلمية ليكون داعية ..

أو يكون قد استكملها .. لكن تنقصه الحكمة في عرض قضاياها ..

وفى كلا الحالين : يسوء الفهم بين الداعى .. والمدعو ..

وبالتالى : يستحيل التفاهم ..

وعلى الساحة الاسلامية اليوم دعاة لا ينقصهم الاخلاص .. بيد أنهم فى حاجة الى استكمال العدة .. ليخوضوا المعركة بسلاح من المعرفة والحكمة معا ..

ان من أعظم أسباب تأخرنا : العلم الناقص .. الذى هو أشد خطرا من الجهل البسيط :

لأن الجاهل محتمل أن يستجيب على يد مرشد

عالم .. بلا تفلسف .. أما صاحب العلم الناقص ..
فهو لا يدري .. ولا يقتنع بأنه لا يدري ..
وكما قيل :

البلاء بمجنون خير من الابتلاء بنصف مجنون :
وإذا احتجنا الى لمعرفة الكاملة رصيذا يمدنا
بالطاقة .. فنحن أحوج - فى حال العلم - الى
الحكمة .. لتأخذ الحقيقة سبيلها الى القلوب ..

ان عشرة دراهم من الحكمة ضرورية لـ درهم
واحد .. من المعرفة ! ذلك .. بأن بعض الناس
مصروف عن الحق جهلا .. لا عنادا .. ومن ثم .
فالرفق به أولى من قسوة تثير بها فى نفسه ردود
فعل معاكسة .. تقف معه ضد موعظتك :

(أ) عزة نفسه ..

(ب) عصبيته لمذهبه فى الحياة ولو كان فى ذاته
خطأ ..

(ج) الفه لعادات صارت له طبيعة ثانية ..

ومع احساسه العميق بأنك على الحق فى نصيحتك
أياه .. ومع احساسه أيضا بحاجته الى ما يقول ..
الا أنك بالقسوة نسفت جسور التفاهم .. وعاد
هو بذنب هو فيه معذور .. ولم يشفع لك حينئذ

اخلاصك فى موعظتك .. فكنت مذبنا .. غير معذور !!

وأمر آخر :

ان الخاسر الحقيقى هو الدعوة التى يتقاضانا الوفاء لها نسيان حظوظ النفس .. ليكون الولاء للدعوة وحدها .

لقد استطاع القرآن الكريم فى الماضى أن يقنع الجوس والمشركين . فدخلوا فى دين الله أفواجا . ويخشى أن يئول أمرنا اليوم الى عجز عن اقناع المسلمين بحقائق دينهم !

وفى غمرة الحماس قد ترتكب اثما يحول بين الناس وبين هداية القرآن .

ان الصحوة الاسلامية اليوم شىء يحس معه المسلم ببرد السلوى .. ومن واقع الحرص نقولها كلمات نحسبها مجدية .. وفى وعينا أن أعداء الاسلام لا يسكتون :

ان تجربتنا معهم تثبت أنه :

كلما هبت الأمة الاسلامية من رقدتها فى بعث جديد .. كلما كانت لأعدائها حركة موازية تحاول

أن تدرا بها خطر البعث الاسلامي الجديد تطويقا ..
أو احباطا .. أو تشكيكا .. وحينئذ فالسعاة
مطالبون بمزيد من الحذر .. ان قوة الاندفاع تفقد
الداعية الرؤية البصيرة المستأنية .. وبالتالي ..
لا يقدر على الاقناع ..

وهنا لابد من الحكمة سبيلا الى مكان الاقناع في
قلوب الناس .

ومن صورة هذه الحكمة ما قاله عبد الحميد
الكاتب :

إذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه .. وإذا
عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقها من
الحسن .. واحتال بصرفه عما يهواه من القبح
بالطف حيلة وأجمل وسيلة :

وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان عالما بصيرا
سياستها التمس معرفة أخلاقها :

فان كانت جموحا لم يهجاها اذا ركبها .

وان كانت سبوقا اتقاها من قبل يدها .

وان كانت شرودا توقاها من ناحية رأسها .

وان كانت حرونا قمع برفق هواها في طرقها .

فان استمر عطفها يسيرا فيسلس له قيادها .

وعلى الساحة الاسلامية اليوم دعاة لا نشك في
اخلاصهم .

بيد أن قصور ادراكهم للهدف . . وعجزهم عن
المعنى فى الطريق المؤدى بهم اليه . . كل ذلك يجعلهم
أكثر الناس حاجة الى وقفه يحاسبون فيها أنفسهم -
حين لم يحسنوا الوصول بالناس الى ما يريدون - ثم
يجددون المسير مرة أخرى فى ضوء الحكمة القرآنية . .
والتي نحاول أن نصل الى بعضها فى هذه الصفحات
التي نتعرض فيها لقصة موسى عليه السلام . . من
القرآن الكريم .

والله تعالى هو المأمول أن يبلغنا ما نصبو اليه .
انه نعم المولى ونعم النصير .

د . محمود محمد عماره

حاجتنا الى الدعوة

معنى الدعوة :

الدعوة : من الدعاء الى الشيء . بمعنى الحث على قصده . ومنه قوله تعالى :

(قال رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه)

وقوله عز وجل :

(والله يدعو الى دار السلام)

ومثلها الدعاية . وفي كتاب هرقل : أدعوك بدعاية الاسلام . أى : بدعوته . وهى فى العرف :

حث الناس على الخير والهدى . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ليفوزوا بسعادة العاجل والأجل :

المراد بالدعوة :

ومن هذا التعريف يتضح المقصود بكلمة الدعوة عند اطلاقها . . وهو : الدعوة الى الله . قال صاحب القاموس :

(١). المرجوم الشيخ على محفوظ .

(الرجبة الى الله)

والرجبة الى الله تعالى • أو الدعوة اليه تعنى :
الدعوة الى دينه وهو الاسلام :

(ان الدين عند الله الاسلام)

معنى الوعظ :

وإذا كانت الدعوة فى جوهرها : اقامة نظام
الحياة ليتسق مع أصول الاسلام •• فان الوعظ
هو :

استثارة المشاعر •• وترقيقها •• وحفزها لهم
من مراقدها لتنشط •• وتنبعث عاملة بهذا الدين
المدعو اليه •

انه عملية قلبية عاطفية •• تقوم بدورها الفعال ••
حتى اذا عرضت حقائق لاسلام على العقل •• كانت
أشواق القلب دافعا الى قبولها •• بل والدعوة
اليها •

هل نحن فى حاجة الى الدعوة ؟

وبصورة أوضح :

١ - فينا كتاب الله تعالى ••

٢ - وسنة نبيه المطهرة ••

٣ - وحوادث التاريخ بين أيدينا ومن خلفنا ..

٤ - وفينا أيضا واعظ الضمير فى كياننا ..

فهل نحن مع هذا فى حاجة الى دعوة ؟ ! ودعاة ؟ !
يقول أناس لا فائدة ! وربما وصل التشاؤم ببعض
الناس حدا أنكروا فيه أن يكون للموعظ قيمة .. لا من
حيث توفر العوامل السابقة فقط .. بل لأن طبيعة
الانسان لا أمن معها فى العودة الى الطريق المستقيم
اذا هى حادث عنه .. يعنى : لا أمل فى الاصلاح ..
وقد يأخذ الأمر شكل مؤامرة يراد بها وقف المد
الاسلامى الزاحف .. وبث اليأس فى قلوب تندفع
على طريق الاصلاح .. راغبة الى ربها بعقل هذا
المنطق :

« لا داعى للتهور دفاعا عن الاسلام .. لماذا ؟
لأن للدين ربا يحميه !! » .

آراء المتشائمين .. والمغرضين (١)

راى البراهمة :

قالوا : لا جدوى من الاصلاح .. ولا علاج
الا بواحد من سبيلين :

(١) يراجع فى هذا الموضوع كتاب : الدعوة الى الله للمرحوم
الشيخ أبو بكر ذكرى .

رأيا بالزهد .. فرارا من الحياة ..
وأما بتقديم النفس قربانا للنار .. يصير بها
الانسان رمادا ..

وفى امكاننا أن نقول زدا عليهم :

ان اللجأ الى أى من وسيلتين أحلاهما مر ..
انما يكون لو لم نجد هناك طريقا آخر للخلاص ..
أما وقد فتح الحق سبحانه وتعالى طريق العودة
اليه أمام المسرفين على أنفسهم .. مهما كانت الذنوب
أحجاما وأعدادا .. فان فرصة الاصلاح اذن متاحة ..
والأمل فى العلاج قوى ..

ونحن فى حاجة الى حداة مخلصين عى طريق
العودة .. يمهدوننا تمهيدا أمام السالكين ..
ليستأنفوا السير من جديد على سواء الصرط ..

رأى أبى العلاء :

واذا كان البراهمة منطقيين مع أنفسهم وزمانهم
وبيئاتهم .. فالرجل كأبى العلاء المعرى يرفض
النصيحة ويشكك فى جدوى الموعظة الحسنة فى مثل

قوله :

وما قبلت نفس من الخير لفضة
وان طال ما فاهت به الخطباء ؟ !

كيف يقول بهذا مع أنه وقف واعظاً أمراً ناهياً
بما روى من شعره الزاهد فى الدنيا .. والذى
يستحث الخطى الى الدار الآخرة ؟

وكيف يحرم على غيره ما أباح لنفسه ؟ !

ثم انه رجل مسلم .. وتاريخ الاسلام حافل
بما صنعتها الكلمة الطيبة فى عصور الظلام وكيف
خرج بها الناس من الظلمات الى النور ؟ ! واذا لم
يقبل هو من الخير لفظة .. فقد قبل غيره .. وأحس
فى كيانه بالتغير الى الأفضل .. فهو اذن استثناء
من القاعدة .. ويأسه من الحياة لا يصح أن يكون
هو القاعدة لحياة حافلة بنماذج تتناول أمور عيشيا
عاملة آملة .. صالحة مصلحة .

واذا لم تؤثر كلمة الخير اليوم .. فسوف تؤثر غدا
أو بعد غد ..

بل ان حق المسرفين فى الموعظة لا يسقط بالتقادم !
وواجب الدعاة تخولهم بالموعظة بلا يأس وان طال
بهم المدى ..

على أن تعريف الدعوة مأخوذ فيه معنى : الحث ..
والإلحاح .. والحض .. باستمرار .. كما يفهم
ذلك من نص التعريف الآنف الذكر ..

وذلك يعنى بالضرورة دوام التذكير .. والاصل
فى ذلك قوله تعالى ..

(ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون)

ولمن وصل الله تعالى القول ؟

لهؤلاء المذكورين فى الآية السابقة مباشرة :

(فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم .
ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله
لا يهدى القوم الظالمين)(٢) .

فاذا لم يستجب القوم للموعظة .. فان الأمل فى
الهداية باق .. ولعلمهم يتذكرون .. فيؤمنون .

ان الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة
يجعل من الاستجابة أمرا بعيدا بعد ما تبين من
الهدى :

(فان لم يستجيبوا لك)

لكنه مع هذا لا يطلب منه صلى الله عليه وسلم
أن يعرض عنهم وينقض يده من تذكيرهم .. انه
سبحانه يلفت نظره الى علة الاعراض هنا وهو :

(١) القصص ٥١ .

(٢) القصص ٥٠ .

الهوى المتبع .. وتلك صورة من الانحراف تضع صاحبها فى مقدمة الضالين .. وعلى رأس قائمة المنحرفين عن جادة الصواب ..

واذن .. فيمكن للقوم .. اذا رأوا يوماً أنوار الحقيقة - أن يعدلوا موقفهم ويستديروا ليستقبلوا النور الوافد ..

وتلك نتيجة متوقعة .. لو تخلصوا من تحكم الهوى .. ولهم على نفس الطريق أخوة سبقوهم بالايمان ..

ولا تواجههم الآية بالظلم .. لكنها تقرر حقيقة عامة .. لا تشتبك اشتباكا مباشرا مع القوم : فلعل وعسى أن تتغير القلوب ..

(ان الله لا يهدى القوم الظالمين)

ومعنى ذلك أن الظلم منشأ الضلال .. فاذا تحرر الانسان من ربقته .. تحرر فى نفس الوقت من الضلال .. وأسلم زمامه لهداية السماء ..

ولو تأملنا الآيات الكريمة التالية لوجدناها تعرض نماذج لأناس تلى عليهم الذكر فآمنو بعد ما كفروا .. وانها لتتحدث عن سماحة أنفسهم .. وبشاشة قلوبهم .. ثم عن ما أدخلهم من الثواب المضاعف ..

مما نعتبره تشجيعاً للمعاندين .. لينقلوا خطاهم
الى نفس الدرب . ليصلوا الى نفس المصير .. وبس
يتم ذلك الا بالدعوة .. والدعوة المستمرة ..
بلا يأس ولا ضجر .

وذلك قوله عز وجل :

(الذين اتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون .
واذا يتلى عليهم قالوا ائمانا به انه الحق من ربنا
انا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم
مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما
رزقناهم ينفقون) (١) .

شواهد من السنة :

لما أسلم الطفيل بن عمرو الدوسي .. أعاده
الرسول صلى الله عليه وسلم الى قومه ليدعوهم
الى الاسلام .

ولما دعاهم الى مثل ما آمن به . وطالت دعوته ..
وكان قبل هذا مسموع الكلمة فيهم .. أحسن بشيء
من الحرج .. الذى حمله على العودة اليه صلى الله
عليه وسلم فقال :

انه قد غلبنى على « دوس » الزنا .. فادع الله

عليهم فقال عليه الصلاة والسلام : اللهم أهد دوسا ..
ثم قال له :

أرجع الى قومك : فادعهم .. وارفق بهم (١)

ونلاحظ هنا أن اليأس قد استبد بالطفيل فطلب
أهلاكهم ولكن الرسول الكريم أمره أن يستمر في
دعوته .. شريطة أن يغير خطته .. بمعنى أن يمارس
جولته الجديدة بلا احساس بمركزه وسابق عهده
فيهم فان من شأن ذلك أن يفسد خطته .. كلما تذكر
كلمته التي لم تعد مسموعة !

وعليه أن يترفق بهم .. فانهم بهذا الرفق وأصلون
معه الى حيث أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله
عليه وسلم ..

ان الموعدة الصادرة من قلبك قد لا تصادف قلبا
خاليا لتتمكن منه .. لكن ذلك القلب الجامد قد
يحملها الى من هو أدعى منه وأقرب الى التقبل
والالتزام ..

(ويبلغ الشاهد منكم الغائب)

وربما بقيت الكلمة الطيبة بذرة في النفس ..
ولا تورق ولا تثمر .. الا أن يتهيا المناخ .. وتستعد

(١) راجع السيرة .. لابن كثير .

التربة .. ويسمج الجو .. فتنبت من كل زوج
بهيج ..

ولن يتم ذلك كله الا بدوام الموعظة .. ونبذ
اليأس .. الذى هو أساسا غاية الشيطان .. لتصبح
الظروف أنسب لعمله هو .

وعلى فرض أن الطفيل لم يحقق نجاحا ..
فلا عليه .. والأمر كما يقول الشاعر :

« ومبلغ نفس عذرها مثل منجح » ..

أى اذا كنت تأخذ سبيلك لتحقيق هدف معين ..
فان وصلت اليه .. فيها .. والافأنت كالذى نجح
فى تحقيق مثله تماما ما دمت قد بذلت أقصى جهدك
ولم تدخر وسعا .

وعلى فرط عداوة أبى جهل للرسول صلى الله
عليه وسلم .. وضياع الأمل كلية فى هدايته ..
الا أن ذلك لم يمنع الرسول الكريم من أن يكرر
دعوته .. ودعوته بالكنية - يا أبا الحكم - توددا
اليه . وتلطفا به .

وأكثر من ذلك كله .. فاننا نطالع قوله صلى الله
عليه وسلم :

(كنت بين شر جارين : أبى لهب : وعتبة بن أبى

(م٢ - فقه الدعوة)

مغيط . ان كانا ليأتيان بالروث فيطرحانه على بابى)
كما روى صاحب السيرة الحلبية ! .
لكنه يروى الى جانب ذلك موقفه عليه الصلاة
والسلام . . البالغ بالأمل منتهاه . . حين قال :

(ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر
من مجالسة عتبة بن ابي معيط ليدعوه الى الاسلام) .
وليس بيننا اليوم من هو أفدح جرماً من عتبة . .
ولا من هو شر من ابي جهل وأبى لهب . .

ويحملنا ذلك على الاحتفاظ بقدر من الأمل فى
قلوبنا . . يحملنا على التذكير على رجاء أن تنفع
الذكرى . . ايماننا منا بطبيعة الانسان . . وتطلعنا
الى صحوة أو انتقاضه واحدة من تحت رماد الغفلة
يصير بها المعاند خلقاً آخر . .

وتاريخ الاسلام شاهد على ذلك . .
يقول المرحوم الشيخ على محفوظ فى كتابه :
هداية المرشدين :

(ان الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب
بجمالها . . وكثيراً ما تودى بحياتها . اذا لم تسعف
بالعلاج الناجع . قبل استفحالها واستداد خطرها .
والقلوب كالأجسام :

يعرض لها من العلل والأمراض ما يطفىء نورها •
وقد يفقدها حياتها • وذلك يوردها مورد الضلال
والغى • وانهما كما فى اللذات والشهوات • • وعدم
المبالاة بأنواع الفسق والفجور • وسيئات البدع • •
ونبذ الآداب الدينية والأخلاق المحمدية • • فمن هذه
الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها قال تعالى :

(بل ان على قلوبهم ما كانوا يكسبون) • • ركبها
كما يركب الصداً • • وغلبها • •

كل ذلك يحملنا على الاعتقاد بأهمية الدعوة وحاجة
المجتمع اليها • • لا سيما وطبيعة الانسان معقدة
لتقبل دواعى الخير مهما ارتكب من المعاصى • •

انها صالحة للاعتبار دائماً • • ومن واجب الدعاة
ألا ييأسوا من ملاحقتها بالعلاج كلما كان الوقت
مناسباً • • والظروف مواتية • •

والا • • فان الاستسلام للعلة مجافاة لروح الاسلام
الذى يؤكد دائماً على قبول التوبة مهما كان حجم
الذنوب • • ومهما كان عددها أيضاً • •

وذلك يعنى بالدرجة الأولى الثقة بلا حدود فى
صحوة الضمير وتقبل العلاج من قبل عصاة بلغوا
فى الانحراف حد التشبع • • فلنقل كلمتنا • • فقد

تصادف نفسها أرهقتها الخطيئة . . وتبحث عن
الخلاص . قال بعض الحكماء .

(الموعظة موقظة للقلوب من سنة الغفلة . ومنفذة
للبصائر من سكرة الحيرة . ومحياة لها من موت
الجهالة . ومستخرجة لها من ضيق الضلالة) .

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان معبرا عن وجهة
نظر القائلين بالتذكير على أى حال :

(القول الثانى) :

يجب الاحتساب سواء نفع أو لم ينفع . لأن احتسابه
قيام منه بواجب شرعى . فلا يتوقف على انتفاع
الغير به .

ولأن على المسلم أن يؤدى ما عليه . وليس عليه
أن يقوم الغير بما عليه . . مثل ترك صاحب المنكر
منكره . وأجابوا على احتجاج أصحاب القول
الأول - المانعين للتذكير اذا لم ينفع - بأن الآية
الكريمة :

(فذكر ان نفعت الذكرى) لا تعلق الوجوب على
حصول الانتفاع للأدلة الآتية :

١ - ان المعلق « بان » على الشيء . . لا يلزم
أن يكون عدما عند عدم ذلك الشيء . يدل على ذلك
آيات منها :

(فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم) فإن القصر جائز وإن لم يوجد الخوف •

وقوله تعالى : (فإن لم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة) والرهن جائز مع وجود الكاتب •

٢ - إن ذكر الشرط في الآية الكريمة « فذكر إن نفعت الذكرى » لفوائد منها :

أنه سبحانه وتعالى ذكر أشرف الحالتين عند التذكير وهي حالة الانتفاع ••• كما قال تعالى : (سرابيل تقيكم الحر) وتقدير الآية : وتقيكم البرد •• وعلى هذا فقوله تعالى :

(فذكر إن نفعت الذكرى) فذكر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع ومن الفوائد أيضاً :

أن المراد الحث على الانتفاع بالذكرى كما يقول الشخص لغيره إذا بين له الحق :

قد أوضحت لك الأمر إن كنت تعقل • فيكون مراده الحث على القبول) •

وقفة مع المفكرين الغربيين

ذكر الدكتور المرحوم محمد عبد الله دراز رأى
بعض الفلاسفة الغربيين فى مفهوم الأخلاق عندهم ..
وفى امكان تغييرها من حال الى حال ..

١ - « شوبنهاور » الفيلسوف الألمانى قال :

يولد الناس أختيارا أو أشرارا كما يولد الحمل
وديعا .. والنسر مفترسا .. وليس لعلم الأخلاق
الا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم .. كما يصف
التاريخ الطبيعى « حياة الحيوان » (مبادئ علم
الأخلاق للمرحوم د/ دراز ص ٦ .

٢ - الألمانى « كانت » :

ان الذى يشاهد موقف الانسان فى ظرف معين
ويعرف سوابق تصرفاته فى مثل هذا الموقف ..
يستطيع أن يتنبأ صادقاً بما سيفعله فى مثل هذا
الظرف المعين .. كما يتنبأ العالم الفلكى بكسوف
الشمس . وكسوف القمر فى ساعة محددة
« المرجع السابق » .

٣ - سبينوزا الهولندى :

(ان أفعال الناس كغيرها من سائر الظواهر
الطبيعية تحدث . ويمكن استنتاجها بالضرورة

المنطقية الهندسية كما يستنتج من طبيعة المثلث أن
زواياه الثلاث تساوى زاويتين قائمتين) المرجع
السابق .

٤ - « ليفى برول .. الفرنسى » :

« ان ميولنا الحسنة أو القبيحة التى تجىء بها
الى هذا العالم عند ولادتنا هى طبيعتنا . فكيف
نكون مسئولين عن طبيعة هى ليست من عملنا . أو
على الأقل ليست من عملنا الشعورى الاختيارى »
المرجع السابق .

٥ - هيوم الانجليزى :

(ان شعورنا بالمسئولية ليس الا وهما خداعا)

مناقشة هذا الاتجاه :

حين عزل الغرب الدين عن منصة الحكم .. ومضى
وحده فى التيه .. ارتكب خطأين :

الأول : تحكيم العقل فيما وراء الطبيعة .. فتاة
دليلة .. ومضى بين ركام من الظنون شقى بها
طويلا ..

الثانى : الاعتماد على الضمير فى مجال الأخلاق ..
فضلوا وأضلوا .. لأن الضمير الذى لا يستمد نوره
من الوحي السماوى .. ومن الايمان بالآخرة يتخبط

فى الحكم ٠٠ وتصبح الأخلاق فى تقديره أمرا
اعتباريا ٠٠ يتلون حسب الأمزجة ٠٠ والامكنة ٠٠

هذا الضمير الذى أباح للبرازيل أن تلقى بفائض
البن لديها ٠٠ فى البحر ٠٠ وسول لأمرىكا أن تلقى
بفائض القمح عندها ٠٠ الى نفس المصير !

فى الوقت الذى نتواطأ فيه القوى المعادية لارخاص
المواد الخام لدى الشعوب المحتاجة فعلا الى هذا
القمح ٠٠ وذلك البن !!

فلا هى بالتى أطعمت الشعوب المتخلفة من جوع ٠٠
وفضلت عليها أسماك البحر ٠٠ ولا هى بالتى أنصفت
ثلثى سكان الكرة الأرضية فأعطتهم ثمننا يناسب
ما لديهم من أمكانات وخامات انها تسلب ٠٠ ثم ترد
الى هذه الشعوب بأغلى الأثمان !

هذا هو الضمير الغربى ٠٠ وتلك هى الأخلاق فى
نظره !

والقوم هناك منطقيون مع أنفسهم ٠٠

وهل ينبت الخطى الا وشيخة ٠٠

وتنبت الا فى منابتها النخل ؟ !

والشئ من معدنه لا يستغرب كما يقولون :

ولكن الاسلام شئ غير هذا ٠٠

ولدينا نحن المسلمين ما نرد به هذا التصور ..
وما يترتب عليه من احكام جائره .. واذا قرر
« كانت » امكان التنبؤ بموقف الانسان بناء على مواقف
سابقة مشابهة .. فنحن نتساءل :

هل كان من الممكن - بهذا المقياس - التنبؤ بموقف
عمر رضى الله عنه .. عندما دخل على أخته ..
ونزع ما فى يدها من آيات قرآنية .. مست شغاف
قلبه فحدث التغير الكبير !؟

كان المتوقع حينئذ .. أن يثور .. وتسيل الدماء
هنا وهناك .. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن .. وأعلن
الفاروق اسلامه فى ظروف ما كانت تخطر على بال
أحد .. وقل مثل ذلك فى : عكرمة .. وخالد بن
الوليد .. وغيرهم من الرعيل الأول ..

وان يقرر « شوبنهاور » أن دور علم الأخلاق
لايتعدى وصف واقع الانسان الذى لا يمكن تغييره ..
كما لا يمكن تحويل النسر الى حمل .. والعكس ..
اذا كان يقرر ذلك .. فانما يتحدث عن علم الأخلاق
فى منطقتى الغرب .. ان للنظرية الأخلاقية الاسلامية
فاعلية وايجابية .. تمتلك بهما زمام الانسان لتنقله
من محيط الى محيط كما يقولون ..

وهى ضد السلبية الواقفة عند حد التسجيل ووصف

الواقع كما هو الشأن هناك . . ان الحياة هناك أرقام وأحجام . . ومقدمات تسلم الى نتائج . . هكذا في نظام الى رتيب . . بينما الاسلام - كما قلنا - قوة فاعلة مؤثرة . . لا ترضى بالواقع . . ولا تستسلم له . . لكنها تروضه على فعل الخير استعلاء به على نوازع الشر العارضة على طبيعته . .

يقول المرحوم الدكتور دراز (١) .

(ان القرآن حين يعرض نظريته عن الحق وعن الفضيلة . . لا يكتفى دائما بأن يذكر بها العقل . ويثير أمرها باستمرار أمام التفكير والتأمل . . وانما يتولى هو بنفسه التدليل على ما يقدم . . ويتولى تسويغه .

وفضلا عن ذلك . فان طبيعة استدلالاته . والطريقة التي يسوق بها الدليل . . قد اختبرت كلاهما على وجه يفهم أعظم الفلاسفة دقة . وأشد المناطق صرامة . . في الوقت الذي تلبى فيه أكثر المطالب واقعية . . كما تروق أرقى الأنواق الشعرية وأرقها . وأبسط المدارك وأقلها) .

ان العقل يعرف الفضيلة بأثارها في واقع النفس

(١) مقدمة : دستور الأخلاق في القرآن .

وواقع الحياة ٠٠ ومن ورائه الوجدان يحرك الانسان
للتنفيذ ٠٠ بل والافتناع بأهمية الفضيلة ٠٠ ولو لم
يكن من ورائها نفع مادي ٠٠

فما هو الامر هناك ؟

قلب مغلق على عقيدة دينية متحجرة ٠٠ لا تناقش ٠٠
بل تستسلم لما لا تعلم ٠٠ ثم ٠٠ فى نفس الوقت
عقل مبهور بالعلم الحديث ٠٠ ولا يعترف بهذه
العقيدة ٠٠ ولا بالدين الاطقوسا ومراسم ٠٠ أى
أن الكيان الانساني مضموم على أشد أنواع
التناقص ٠٠ ومع هذا يتغنى بالبحث العلمى النزوية؟!!

أى معنى للبحث وللنزاهة يبقى مع هذا المتمزق ٠٠
والصراع داخل الكيان البشرى ؟ بل أية حضارة
يمكن أن تؤسس على هذه الكيانات الهشة؟!!

وجاءت مقرراتهم فى مجال الأخلاق على نفس
المستوى ٠٠ مادية هابطة تقول أحيانا كاشفة عن
أساس الأخلاق :

(مثلا ٠٠ اذا ضعف هذا العصب ٠٠ انتهى
بالمريض الى عادة الكذب ٠ واذا مرض غيره ٠٠
انتهى به الى عادة السرقة !

وهكذا ٠٠ فتسمى شرورا وردائل ٠٠ وان هى

الاسماء سمتها الأوهام • وثبتها طول الزمن • فنزلت منزلة القداسة •

بيد أن عملية التغيير تحدث أساسا في باطن الانسان •• الذي يغالب فيغلبه •• ويقاومه فينتصر عليه •• ليخرج الانسان من التجربة أنصع جوهرًا •• وأخذ أثرا ••

(فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى) (١) •

(اذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه يأمره وينهاه) (٢) •

وتجليه الاحساس بهذا الواعظ الذاتى •• ليقوى ويصبح قادرا على مباشرة سلطاته فى التوجيه والارشاد •• هو ثمرة مباركة لمنهج القرآن فى تربية النفوس وأخذها بالفضيلة :

ونحن نرى (العناية الفائقة التى التزمها هذا الكتاب - القرآن - فى غالب الأحيان :

(١) المرحوم د/ محمد غلاب - كنوز الاسلام •

(٢) المنازعات ٤٠ •

(٢) الديلمى • مسند الفردوس • ذكره السيوطى فى الجامع

• صغير ١٧/١ •

حين قرن كل حكم فى الشريعة بما يسوغه .
و حين ربط كل تعليم من تعاليمه بالقيمة الاخلاقية
التي تعد اساسه :

ومن ذلك : انه عندما يدعونا أن نتقبل من أهلينا
كل تسوية للمصلح . حتى لو كانت فى غير صالحنا
يويد دعوته بتلك الحكمة :

(والصلح خير) (٣)

وعندما يأمرنا أن نوفى الكيل . ونزن بالقسطاس
المستقيم . يعقب على هذا الأمر بقوله :

(ذلك خير) (٤)

ولكى يسوغ قاعدة الحياة . التي تطلب من الرجال
أن يعضوا أبصارهم . ويحفظوا . فروجهم - نجده
يسوق هذا التفسير :

(ذلك أزكى لهم) (٥)

وبعد أن يأمرنا بتبين السبب قبل أن نصدر حكما
يقول :

(٣) النساء ١٢٨ .

(٤) الاسراء ٢٢ .

(٥) النور ٣٠ .

أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم
نادمين) (٦) .

وننقل هنا بتصريف وجهة نظر المرحوم الأستاذ
أبو بكر زكري في الرد على هذه النظرة المتشائمة
المغرضة :

١ - الحكم على خلق انسان عادى لا يثبت على
حال واحدة :

فبينما نراه على صلاح وتقوى حيناً . . . اذا بنا
نراه وقد انقلب فجأة الى عكس ما كان عليه .

أكان يستطيع أن يغير أخلاقه حسب مشيئته
لو كانت الطباع لا تتغير ؟ حسبما يدعى أولئك
الفلاسفة ؟

على أنه من مقررات علم النفس : أن الأخلاق
تتغير بتغير العالم .

٢ - يستمر بعض الناس على خلق زمانا طويلا . . .
حتى يظن أنه لن يتغير . فاذا به ينقلب الى ضده بسبب
عظة سمعها أو حادثة وقعت له . . . واذا جاز لانسان

(٦) الحجرات ٦ .

« دستور الأخلاق ٥١ ، » .

أن يرتد عن دينه كما تقول أخبار الغرب . . فان عودة
الشرير الى طريق الخير أيسر وأولى .
ويحكى أبو العلاء فى ذلك :

أبدى العتاهى (١) نسكا . .
وتاب عن ذكر عتبة

والخوف ألزم سفيا
ن (٢) . . أن يغرق كتبه

وقد وزع الفيلسوف الروسى « تولستوى »
اقتطاعاته على الفقراء فما سر هذا التغيير ؟

٣ - بالعربية والتهديب تتحول طباع البهائم بل
والسباع من الشره والعصيان الى الاعتدال
والطاعة . . فكيف لا يتغير طبع الانسان أيضا ؟ !

٤ - زعم الفلاسفة بأن الطباع لا تتغير انكار
لحقيقة تاريخية شرعية وهى ارسال الرسل الذين
بعثوا لهداية الناس . . ثم هى انكار لجهود المصلحين
عبر القرون .

(١) هو « أبو المعتاهية » الشاعر المعروف اشتهر بحب حارية
له تسمى « عتبة » ثم تاب .

(٢) هو سفيان بن عينية من علماء القرن الثانى الهجرى .
غسل جميع كنبه بالماء خشية أن يكون فيها ما يؤخذ عليه . . ورعا منه .

وإذا كان هناك اليوم باحثون منصفون .. يلتقون
مع وجهة النظر الاسلامية القاضية بإمكان الاصلاح
وضرورته أيضا ..

فقد بقيت للماكرين رغبة ملحة في وقف المد
الاسلامى الزاحف .. عن طريق هذه الظنون
المستترة وراء ما يسمى بالبحث العلمى ..

ثم بمثل هذه التساؤلات التى يطرحونها فى طريق
البعث الاسلامى الجديد .. كقولهم :

لا أمل فى الاصلاح .. فأرضوا بالأمر الواقع ..
أو : ان الاصلاح ممكن .. ولكن لا تراعوا .. فللدين
رب يحميه !

وانها لمحاولات مكرورة يبتغى بها كسر حدة
الحماس المشتعل فى صدور ترى فى الاسلام أملها
وملاذها .. فلو تحقق أملهم .. ورضينا بالواقع ..
ولو قعدنا مع الكسالى .. تاركين حماية الدين
لرب الدين ..

- أى اذا أهملنا الحقل الاسلامى بلا حراسة
ولا ديدبان يقظ - تولى أعداؤنا حراسته !! وكنا
كما يقول الشاعر ..

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة
ونام عنها تولى رعيها الأسد !

- ونحن - باسم الاسلام - مطالبون باليقظة
- والدقة في تناول معارف القوم هناك
- واذا كانت الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها
- التقطها
- فان عين الحكمة أن تأخذ ما تأخذ
- وتدع ما تدع بمقياس الاسلام العادل
- وقد تكلفنا المعركة جهدا
- ومالا
- ولا بأس اذا بقيت لنا شخصيتنا الوفية لدينها
- تهون علينا أن تصاب جسومنا
- وتسلم أعراض لنا وجسوم

دعوة موسى عليه السلام :

- تشعبت جوانب دعوة موسى عليه السلام
- وتعددت مناحيها
- تعددا سلكه عليه السلام ضمن
- أولى العزم من رسل
- على قدر مهمته الخطيرة
- التي تركزت في مهام أربع :

المهمة الأولى :

- مقاومة طغيان مدعى الربوبية : فرعون

« ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين » (١)

(١) القصص ٤

المهمة الثانية :

تحرير الشعب الاسرائيلى من عبودية فرعون :

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض
ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين • ونمكن لهم فى
الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا
يحذرون » (٢) •

المهمة الثالثة :

مقاومة كفران بنى اسرائيل •

« واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله
عليكم ان جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم
يؤت أحدا من العالمين » (٣) •

المهمة الرابعة :

بيان الشريعة وتأسيس الحكومة :

« قال ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى
وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين • وكتبنا له
فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل
شىء ••• » (٤) •

(٢) القصص ٥ : ٦ •

(٣) المائدة ٢٠ •

(٤) الأعراف ١٤٤ : ١٤٥ •

وسوف تكون لنا بمشيئة الله وقفات أمام المهمة
الأولى ٠٠ فى محاولة نستخرج بها بعض الدروس ٠٠
نقدمها بين أيدي الدعاة اليوم ٠٠ لمن شاء أن يتخذ
الى قلوب الناس سبيلا .

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب »

« بعض الدروس المستفادة من قصة

موسى وفرعون »

يقول الحق سبحانه :

(اذهب الى فرعون انه طغى - قال رب اشرح
لى صدرى - ويسر لى أمرى - واحلل عقدة من
لسانى - يفتقها قولى - واجعل لى وزيرا من أهلى -
هارون أخى - أشدد به أزرى - وأشركه فى أمرى -
كى نسبحك كثيرا - ونذكرك كثيرا - انك كنت بنا
بصيرا - قال قد أوتيت سؤلك ياموسى - ولقد مننا
عليك مرة أخرى - اذ أوحينا الى أمك ما يوحى -
أن اذفيه فى التابوت فاذفيه فى اليم فليلقه اليم
بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة
منى ولتصنع على عينى - اذ تمشى أختك فتقول هل
أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تقر عينها
ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا
فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى -
واصطنعتك لنفسى - اذهب أنت وأخوتك بأياتى
ولا تنيا فى ذكرى - اذهب الى فرعون انه طغى - فقولا
له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى - قالوا ربنا اننا

نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى - قال لا تخافا انتي
معكما اسمع وأرى - فأتياه فقولا انا رسولا ربك
فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بأية
من ربك والسلام على من اتبع الهدى - انا قد أوحى
إلينا أن العذاب على من كذب وتولى - قال فمن ربكما
يا موسى - قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم
هدى - قال فما بال القرون الأولى - قال علمها عند
ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى - الذى جعل
لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من
السماء ماء فأخرجنا به أزواجنا من نبات شتى -
كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى -
منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة
أخرى - ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى - قال
أجئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى -
فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه
نحن ولا أنت مكانا سوى - قال موعدكم يوم الزينة
وأن يحشر الناس ضحى - فتولى فرعون فجمع كيده
ثم أتى - قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله
كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى - فتنازعا
أمرهم بينهم وأسروا النجوى - قالوا ان هذان
لساحران يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما
ويذهبا بطريقتكم المثلى - فاجمعوا كيدكم ثم اتتوا
صفا وقد أفلح اليوم من استعلى - قالوا يا موسى

اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى - قال بل
القوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم
أنها تسعى - فأوجس في نفسه خيفة موسى - قلنا
لا تخف انك أنت الأعلى - وألق ما في يمينك تلقف
ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر
حيث أتى - فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب
هارون وموسى - قال أمنتم له قبل أن آذن لكم انه
لكبيركم الذى علمكم السحر فلا قطعن أيديكم وأرجلكم
من خلاف ولأصلبكنم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا
أشد عذابا وأبقى - قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا
من البيئات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما
تقضى هذه الحياة الدنيا - انا آمنا بربنا ليغفر لنا
خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير
وأبقى - انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت
فيها ولا يحيى - ومن يأتته مؤمنا قد عمل الصالحات
فأولئك لهم الدرجات العلا - جنات عدن تجري من
تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى - ولقد
أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم
طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى -
فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم -
وأضل فرعون قومه وما هدى - يا بنى اسرائيل قد
أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطورا لأيمن
ونزلنا عليكم المن والسلوى - كلوا من طبيبات

ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن
يحلل عليه غضبي فقد هوى - واني لغفار لمن تاب
وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) .

مدخل

فى مستهل سورة طه يخاطب الحق سبحانه وتعالى
نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم مبينا له :

أنه تعالى لم ينزل عليه القرآن ليشقى به فى دنياه . .
لكنه أنزله سبحانه ليكون هدى ونورا يوقظ الفطرة
الانسانية لتذكر عناصر الخير فيها . . وأن لها دورا
يفرض عليها أن تحققه فى ضوء هذا القرآن
العظيم . .

ولأن هذا القرآن من عند خالق القوى والقدر
(ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على
العرش استوى) لأنه كذلك . . فان الذى يتخذ هذا
التنزيل مرشدا وهاديا سوف يصل باذن الله الى
سعادة الدارين . . حين يسلم زمامه الى تشريع
كامل خالد قد استكمل كل عناصر الفلاح . . لأن
منزلة سبحانه له كل صفات الجلال والجمال :

(له ما فى السموات والأرض وما بينهما وما تحت
الثرى . وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى
الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى) .

وأين من هذا التنزيل مذاهب أرضية قاصرة ..
تحمل فى طياتها جهل واضعيتها .. وقصورهم ..
وأهواءهم .. التى تضطرب بها أحوال البشر
فلا تستقر على حال من القلق .

و يأتى بعد ذلك الحديث عن قصة موسى عليه
السلام حين تلقى بشائر الوعى لأول مرة . ووقف بين
يذى ربه سبحانه وتعالى ليتحمل مسئولية البلاغ
المبين . لرسالة كريمة كانت طوق النجاة لأمة تتطلع
الى هذه النجاة ..
وذلك قوله تعالى :

(وهل أتاك حديث موسى ان رأى نارا فقال لأهله
امكثوا انى أنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد
على النار هدى . فلما أتاها نودى ياموسى انى
أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى .
وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى .

اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة
لذكرى . ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس
بما تسعى .

فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه
فتردى .

وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاى أتوكأ
عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مأرب أخرى .
قال القها ياموسى فألقاها فاذا هي حية تسعى .

قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى واضمم
يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى
لنريك من آياتنا الكبرى) .

وفى هذا الموقف المشمول بعناية الله تعالى . .
وحين تثق النفس بخالقها ثقة مطلقة . . يتأهب
موسى عليه السلام ليدعو الى الله تعالى على هدى
وبصيرة . . فى رحلة كفاح حافلة بأشوق ما واجه
المرسلون من صعاب .

التزود لرحلة الكفاح :

يقول الحق سبحانه :

(اذهب الى فرعون انه طغى .

قال : رب اشرح لى صدرى . ويسر لى امرى .
واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . واجعل لى
وزيرا من أهلى هارون أخى أشد به أزرى وأشركه
فى امرى . كى نسبحك كثيرا ونذكرك انك كنت
بنا بصيرا .

قال قد أوتيت سؤلك ياموسى) .

معنى الآيات :

يأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يذهب الى فرعون بسبب عدوانه الذى بلغ حد الطغيان .. وهو الأمر الذى يجعل من هذا الذهاب ضرورة .. تكسر من تجبر فرعون الذى ظن أنه الوحيد على الساحة .. ثم هو يواجه اليوم بالحق على لسان موسى عليه السلام .

ولا تتحدث الآيات الكريمة عن استجابة الرسول بقوله :

سمعا وطاعة .. مثلا .. فذلك أمر مفروغ منه .. ولا يحتاج الى تنصيص .. لكنها تذكر رجاء موسى عليه السلام أن يعده الحق تعالى لهذه المهمة الصعبة بما يناسبها من أعداد نفسى ومادى .. ويتلخص هذا الرجاء فى أمور أربعة :

١ - شرح الصدر .

٢ - تيسير الأمر .

٣ - أن يحلل الله سبحانه عقدة لسانه .

٤ - أن يشد أزره بأخيه هارون .

وانه ليستهدف بهذا الزاد الوصول الى الارتباط الوثيق بالخالق جلا وعلا ذكرا وتسبيحا .. هما فى

نفس الوقت الوقود المحرك • والطاقة الدافعة ••
وقاعدة الانطلاق الى البلاغ • ولأن الله تعالى هو
المكلف •• وهو البصير بكل ما يحدث •• وبما سوف
يسفر عنه ذلك اللقاء الخطير بين الحق الأعزل
والباطل المسلح ••

ولأنه مع ذلك يريد أن يحق الحق ويبطل الباطل ••
فانه يتلطف سبحانه ويحقق رجاء موسى عليه
السلام •• لتبدأ الخطوة التالية :

(قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى)

ثم يمدده تعالى بمزيد من صور العون الالهي في
طفولته وصباه •• ليمضي على ضوء الذكرى أشد
عزما • وأقوى رجاء •

اذهب الى فرعون :

ان موسى عليه السلام مأمور أن يذهب الى
فرعون •• ولا ينتظر حتى يأتيه •• بل يمسه هو
بزماء المبادرة مع وجود اعتبارات في جانب الحق
ربما ظن بعض الناس أنها مما يمسه موسى عليه
السلام فلا يذهب اليه •• فمن شاء فليؤمن • ومن
شاء فليكفر ! ولكن الذي حدث أن المبادرة كانت بيد
الحق •• رغم توفر ما يأتي :

- ان فرعون طغى .
- بل وصل به الطغيان الى ادعاء الألوهية .
- ومع أن موسى فى قمة الكمال البشرى (واصطنعتك لنفسى) .
- وفرعون فى قمة البغى . . فان ذلك لا يغير الموقف :
- أى أن طغيان فرعون ليس مانعا من الذهاب اليه . بل هو يقتضى ذلك ويؤكدده . قال أبو السعود فى تفسيره :
- (« انه طغى » . تعليل للأمر) بالذهاب .
- ان فرعون فى قمة المرض النفسى والعقلى . . وموسى عليه السلام طبيب هذه العلة . . والطبيب للمرضى . . لا للأصحاء !
- بل وصل الأمر بموسى وأخيه هارون أن (مكثا على بابه حينما لا يردن لهما . ثم اذن لهما بعد حجاب شديد) (١) .
- ان الأمر بالدرجة الأولى أمر دعوة يراد لها أن تخترق هذا الحاجز المنيع - فرعون - لتصل الى

(١) ابن كثير رواية عن ابن عباس .

قلوب مستعدة للتقبل والاذعان .. بغض النظر عن شخصية الداعى ومركزه .. لان وجود الداعية نفسه مرصود لخدمة الدعوة والتمكين لها فى قلوب الناس .. ولن ينال شرف الانتساب اليها الا من وطن نفسه على ركوب الصعب لانقاذ امة فى قبضة فرعون ..

ولو دعا الدعوة وهم على ثقة من الأمن والراحة -
كما قيل - لما قام فى الأرض مصلحون .

انه طغى :

هذا تعليل للأمر بالذهاب .. أى أن الأمر لا ينصب حاسما جازما لينفذ بلا أسباب ولا مناقشة .. وانما هو المنهج القرآنى الذى يحترم العقل الانسانى .
ويقدره قدره ..

وأية هذا الاحترام أن يعرض عليه القضية مشفوعة بدليلها .. لتنشط أجهزة الانسان كلها عاملة داعية اليها .. وليكون لنا درس يفيدنا فى عرض قضايانا على الآخرين عرضا يدخل فى حسابنا أن للآخرين عقولا .. وقلوبا لها ذاتيتها . ولها اعتزازها بأرائها .. ولها أيضا طبعها الذى ينفر من كل عرض تشم منه رائحة الضغط أو الاكراه .. وانما هو تجلية الحق .. وتوضيح الدليل .. وبعد ذلك :
لا اكراه فى الدين .

معنى دعاء موسى

دعا موسى ربه أن يحصنه بعدة الهجوم فى معركة
تبدو غير متكافئة . . وتلخص الرجاء كما قلنا فى
أمور أربعة :

١ - (قال رب اشرح لى صدرى) :

أى نوره لى ووسعه ليحدث التجاوب مع الدعوة
أنسا بها . . وتفاعلا معها . . وانشراح الصدر . .
ينسجم به الانسان مع وظيفته فاذا هى أمر محبب
اليه . . أثير لديه . .

فاذا ما زاول هذه الوظيفة لم يبال بما يواجه من
صعاب . . وما يتحمل من أثقال . . لأنه لا ينهض
بهذه الأحمال بساعده وطاقته المادية . . ولكن بهذا
المدد الوارد اليه من الحق سبحانه وتعالى . .

وإذا استمد القلب روحه من الله سبحانه حرك
الجسم الى ما يريد . . وإذا انقطع المدد سخره الجسم
لما يريد . . وجعله عبدا لشهواته . . وصار القلب
كالرئيس الضعيف .

له صورة الرئيس . . لكنه فى الحقيقة مرءوس
للجسد المتحكم فى غيبة المدد الالهى . ان ضيق
القلب المحروم من نور الله يشوش على الخواطر .
ولا يمكن صاحبه من اصابة الهدف . .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(لاينقضى القاضى وهو غضبان) (فكيف بالنبوة -
ومسئوليتها فى القمة - التى لا بد لها من عون من
الله يكافىء عظم هذه المسئولية • لاسيما وموسى
عليه السلام يستعد لمواجهة طاغية رأى بعينه - حين
نشأ فى قصره - من صور التعذيب ما يحتاج الى
زاد من الصبر والتثبت عميق •

٢ - (ويسر لى أمر) :

قد يحب الانسان عمله •• لكن الممارسة العملية
قد تسفر عن عوائق أكبر من حيلة الانسان ••

ومن ثم فالحاجة الى الحق تعالى متجددة ••
ولذلك يطلب موسى عليه السلام ألا يكله الله الى
الى قدراته البشرية •• وأن يمنحه التأييد والتيسير :

(أ) نكاء عقليا يعرف به الحق •• واحوال
الخلق •

(ب) تذليل الصعاب من الطريق ساعة التطبيق •
إذا لم يكن عون من الله للفتى •
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

٣ - (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) :

والأصل أن موسى عليه السلام مبلغ عن الله تعالى .. فلا بد له من البيان سبيلا الى فهم ما يقول ..

فطلب عليه السلام حل عقدة لسانه ليصفو له القول .. صفاء تصل به الكلمة الى قلب فرعون .. موزونة .. خالية مما يثير سخريته .. فى نبرة تحمل على التأثير .. وكان له عليه السلام اهتمام آخر بهذا الرجاء تمثل فى قوله :

(وأخى هارون هو أفصح منى لسانا)

أهمية البيان :

ان الأمة تسير الى الحق عبر طريقين :

التشريع .. والبيان ..

ان صناعة البيان أشرف صناعة تحلى بها جيد النوع الانسانى . لاستمدادها من العقل وحركات النفوس . ودلائل الوجود .

فالعقل الذى امتاز به الانسان وان كان له دخل فى كل شىء .. لكن صلته بالبيان أقوى : فقد تحيا الصناعة البارعة فى متوسط العقول .

أما البيان الجيد فلا يحيا الا فى الأمم الراقية .. انه يستمد من الغيب أكثر مما يستمد من الشهادة .

• وان كان بعض كبار الدعوة يستنكرون البيان
• ويعدونّه سفسطه • ويرمون صاحبه بالجهل
• ولا يستحون اذا نطقوا بهذا الخزي ورموا لغة نبيهم
• بذلك • وفيها سر كتابهم • وفخار أئمتهم • وعليها
• وحدها حياة دينهم •

تستدل به العقول على الله • وترفع به الحجب عن
الحق • ويكشف عن وجه الصواب اذا أحاط به
الباطل •

• وتنشر الحكمة • ويقام العدل •

ولكن •• من جهل شيئاً عاداه • ونعوذ بالله أن
نكون من الجاهلين (١) •

ان البيان لازمة من لوازم الانسان على ما يقول
سبحانه :

(خلق الانسان علمه البيان) (٢)

فلم يعطف البيان على الانسان لأن العطف يقتضى
التغاير •• والحال أن البيان والانسان وجهان لعملة
واحدة •• وكأنما خلق الله تعالى الانسان يوم خلق

(١) راجع فى هذا الموضوع : الدعوة والدعاة للمرحوم الشيخ
على الزنكلونى •

(٢) الرحمن •

البيان ٠٠ أو خلق البيان في شخص الانسان ٠٠
فلا يفترقان .

(وعن أثر الكلمة ودورها في تحريك الإرادة
لتعمل .

يقول ابن الأثير : « ألا ترى أن حقيقة قولنا : « زيد
أسد » هو قولنا : « زيد شجاع » لكن الفرق بين
القولين في التصوير والتخييل ، وإثبات الغرض أنه
رجل جرىء مقدام ، فإذا قلنا : « زيد أسد » يخيل عند
ذلك صوة الأسد وهيئته ، وما عنده من البطش والقوة
ودق الفرائس ، وهذا لانزاع فيه ٠٠ وأعجب ما في
العبارة المجازية ، أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي
في بعض الأحوال حتى أنها ليسمح بها البخيل ،
ويشجع بها الجبان ، ويحلم بها الطائش المتسرع ،
ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر ،
حتى اذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان
منه من بذل مال ، أو ترك عقوبة ، أو أقدم على
أمر مهول ، وهذا هو فحوى السحر الحلال ، المستغنى
عن القاء العصا والحبال (١) .

(وما المجازات والاستعارات والكنائيات ، ونحوها
من أساليب البلاغة ، إلا أسلوب طبيعي لا مذهب عنه

(١) المثل السائر لابن الأثير ج١ ص ١١١ تحقيق الحوفي وآخر .

للنفس الفنية ، ان هي بطبيعتها تريد دائما ما هو اعظم ، وما هو اجمل ، وما هو ادق . وربما ظهر ذلك لغير هذه النفس تكلفا وتعسفا ووضعنا للأشياء في غير مواضعها ، ويخرج من هذا أنه عمل فارغ ، واساءة في التأدية ، وتحمل لا عبرة به ، ولكن فنية النفس الشاعرة تآبى الا زيادة معانيها ، فتصنع ألقاظها صناعة توليها من القوة ماينفذ الى النفس ويضاعف احساسها ، فمن ثم لا تكون الزيادة في صور الكلام وتقليب الفاظه وترداد معانيه الا تهيئة لهذه الزيادة في شعور النفس) (١) .

فمن الناس (من يعجبه حسن اللفظ ، ومنهم من يعجبه الاشارة ، ومنهم من ينقاد بببيت من الشعر . واحوج الناس الى البلاغة :

الواعظ ، ليجمع مطالبهم ، لكنه ينبغي أن ينظر في اللازم الواجب ، وأن يعطيهم من المباح في اللفظ قدر الملح في الطعام ، ثم يجتذبهم الى العزائم ، ويعرفهم طريق الحق) (٢) .

ثم انى وجدت بعض الكتب الاسلامية الحركية التربوية قد فصلت بلا مبرر بين النثر والشعر . وحرمت المرابين من استعمال مئات الأبيات والقطع

(١) وحى القلم ٣/ ٢١٣ .

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي/ ١٠٠ طبعة محمد الغزالي .

من شعر الرقائق ، أو شعر الحماسة ، أو شعر العقيدة والفكرة ، مما قاله تقات الشعراء ، القدامى والمحدثين ، وشعراء هذه الدعوة المباركة ، والمرء ربما (يسمع المعنى نترا ، فلا يهزله عطا ، ولا يهيج له طربا ، فادا حول نظما : فرح الحزين ، وحرك الرزين . . . وقرب من الأمل البعيد) (١) .

و (أن من الشعر لحكمة) كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم) .

(وانما الوزن من الكلام كزيادة اللحن على الصوت : يراد منه اضافة صناعة من طرب النفس الى صناعة من طرب الفكر) (٢) .

لهذا ملنا الى ايراد الأشعار ، والاستعانة بها في هذه المواضع ، قاصدين أن نضيف الى المعانى التى يستحسنها فكر الداعية نوعا من استحسان نفسه لها ، ليرسخ المعنى ، ويطول تأمله وتذكره .

وليس أدل على أهمية الشعر فى نصر العقائد وترويجها ما كان له من دور فى اسعاف أهل البدع وترويجها لدى العوام ، مضادة لمساعى ابن تيمية

(١) جريدة القصر/القسم العراقى ٢٠٢/١ .

(٢) وحى القلم للرافعى ٢٨٥/٣ .

وتلامذته عندما انبروا لتفنيدها ودمغها بحجج السنة
الغراء .

(ولا ريب أن منطق ابن تيمية القوي أثر أثره ،
ولكن جفاف المنطق لا يقوى على مقاومة نضرة الشعر
وفتنته) . كما يقول شاعر الاسلام محمد اقبال (٣) .

وهو كما قال ، فان الذى قلل من سريان كلام
ابن تيمية فى أوساط العامة هو ما كان عليه أئمة
الضلالة الداعين الى البدع من روعة البيان ، ورقة
الشعر . وتمكنهم فيه ، حتى سحروا قلوب الناس
بشعرهم من حيث لا يشعرون ، ولم يتهياً لابن تيمية
شاعر مبدع يسانده .

ان للشعر هذه القابلية فى اسعاف من يستعمله
وتزيين الخطأ أو الصواب ، ونصرة الحق أو الباطل .
على حد سواء ، فى كل شئون الفكر وحقائق الحياة
اذ النفس الانسانية تحب الجمال . والشعر جمال
كله . . . وبامكانه أن يزيد الحق والصواب نضرة
وزهاء ورونقا ووضوحا ، وأن يخفى ما يشين صفحة
الباطل والخطأ والوهم من خروق ونتوء واعوجاج ،
فينظلي عيبه بالتزويق . ولا يتخلص من أسر الشعر
وتأثيره الا قلب عامر بالايمان عمراننا كافيا .

(٣) كتاب محمد اقبال لعبد الرهاب عزام/٥٢ .

ان هذه الظاهرة الشعرية هي التي دفعتنى الى الاستعانة بالشعر فى هذه المواعظ . ولئن كان يقلل من تذوق بعض الدعاة لهذا الشعر العربى الرصين الواضح الذى اخترته ، ما أصابهم من هذا الذى أصاب عموم الجيل العربى الجديد من ضعف الحماسة الأدبية ، فانى أرجو أن يكون عملى هذا محاولة للارتفاع بهذا الذوق لدى الدعاة . ولئن كان باعى فى الشعر قصيرا ، فان فى انتاج الثقات غنى وبركة . ولئن كان أكثره منشورا من قبل . فان فى هذا الانتقاء تقوية وحفظا وترويجا وبعثا جديدا له (١) .

- ٤ - واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى .
أشدد به أزرى .
وأشركه فى أمرى .
كى نسبحك كثيرا .
ونذكرك كثيرا .
انك كنت بنا بصيرا .

(١) محمد الراشد . المنطلق من ص ٢٧ وما بعدها .

رفقة الخير :

لا بد على طريق الدعوة من رفقة الخير .. يعينون
على أمر الله تعالى .. ولا يستغنى أجود السيوف
عن الصقل كما يقولون ..

وقد طلب موسى عليه السلام أن يكون أخاه هارون
وزيراً معه لأنه :

• (أ) كان أوسع صدرا

• (ب) أكبر سنا

• (ج) أفصح لسنا

• (د) ثم هو أخوه الذى يتوفر به الاخلاص والود
ويتحقق به التعاون على البر والتقوى على ما يقول
سبحانه :

(يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من
المؤمنين) (٢) •

(يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال
عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى الى الله) (٢) •
والصحبة المباركة سند يتخطى به الأنبياء وورثتهم
من العلماء حواجز الخوف والقلق فى عراكمهم مع
أعدائهم •

(١) الانفال ٦٤

(٢) الصف ١٤

وحين يطلب موسى عليه السلام أخاه ليذكرا الله تعالى ويسبحاه .. لا يريد التسبيح فى الخلوة - على ما يقول المفسرون - وانما يريد - ما يكون فى تضاعيف الرسالة .. فكل منهما يصدر عند ما يؤيد صاحبه .. ونسبة التأثير لا ريب أكبر مما لو انفرد بالبلاغ .. فربما خنق الطغيان صوته فضاع فى دوامة الشغب .

وحين .. تعتقد أن أمرا من الأمور حق .. تشعر بالراحة .. وترتاح أكثر اذا ما وجدت انسانا يشاركك هذا الشعور بالحق .. فاذا ما رأيتَه يطبق هذا الحق فى ذات نفسه .. بلغ شعورك بالراحة مداه .

فاذا رأيت من يعمل ضد هذا الحق ثارت نفسك ولم تكن بحاجة الى من يقنعك بالدفاع أو الهجوم ..

هذا اذا كان الموضوع مجرد أمر بسيط عادى .

أما اذا كان الموضوع من الخطورة بمكان .. فان نسبة الراحة فى حال الموافقة تكون على قدر أهميته .. ونسبة الهجوم أو الدفاع أيضا .

فان الحقائق تتفاوت بحسب ما يترتب عليها من نتائج .. وأمور العقيدة والرسالة بطبيعة الحال تبلغ الذروة ..

وعلى هذا الأساس طلب موسى عليه السلام أن يشد الله تعالى أزره بأخيه هارون . . ليزداد قدرة على تحمل تبعات الدعوة . . ومواجهة للطاغية المستبد . .

وأمر آخر :

كان موسى عليه السلام حاد الطبع . . . سريع التأثير . . ولو أنه انفرد بالرسالة لبقى في حاجة الى الصدر الواسع يتحمل معه الصدمة . . ويدور بالحكمة حول الشدائد لاحتوائها . . وذلك هو الدور البارز لهارون عليه السلام . . ومن أجله دعا أن يكون وزيراً له . .

ان المزاج الحاد يحقق نجاحاً ولا شك . . وهو أمر مطلوب في زمان تضغط فيه الرذائل بثقلها البغيض ولا يفلح حديدها الا دفاع قوى . . بيد أن مصلحة الدعوة تفرض ألا ينفرد هذا المزاج بتصريف الأمور - التي لا غنى لها عنه بل لا بد مع ذلك من وجهة النظر الهادئة المعتدلة تستثمره لصالح الدعوة . . وتوجيهه الى حيث يفيد . . وبذلك يتكامل الدعاة على الطريق . . بلا نزاع أو تصادم . . وما أحوجنا الى أن نعي هذا الدرس جيداً .

لقد أجاب الله تعالى سؤال موسى عليه السلام :

(قد أوتيت سؤالك يا موسى)

وكان من الممكن أن يستقل موسى بالنبوة ..
ولكن لله تعالى حكمة هو بالغها قضت بأن يسيرا
معا على طريق الدعوة .. لتصل الى ما قدر لها
من كمال .

التناصر من أجل الدعوة :

وسؤال موسى عليه السلام ربه أن يجعل له من أهله
وزيراً .. يتيح لنا فرصة الحديث عن موضوع
الاستعانة بالغير على طريق الدعوة .. ومدى ما يحقق
من نجاح .. وقد تساءل العلماء : هل يكفي الواحد
لينهض بعبء الدعوة منفرداً .. على ما تثيره الوحدة
من وحشة ؟

قال جماعة : نعم .. يجوز للواحد أن يدعو ..
واستشهدوا بقوله تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة
منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ...) ..
قالوا :

الطائفة في لسان العرب : الواحد فما فوقه ..
لكن ذلك يفيد في حاله ما اذا كان الأمر متعلقاً
بجماعة من الغافلين يراد وضع الحق بين أيديهم ..
وابلاغهم بالأوامر والنواهي ..

أما من حيث أثر الدعوة فى النفوس .. فللدعوة
الصادرة عن الجمع آثارها البارزة .
وهنا لابد من تدبر الظروف وما تتطلبه من
استعداد :

(أ) يكفى عدد قليل من الدعاة اذا كان المدعوون
فى مستوى نفسى متقارب ..
(ب) اذا اختلفت مشارب المدعوين .. فكثرة
الدعاية مطلوبة ..

لأن تباين المشارب يستدعى دعاء بعدد هذه
الألوان .. ليدخلوا الى القلوب من زواياها
المختلفة ..

وقد يخطر للجمع من الدعاة ما لا يخطر على بال
الواحد .. وقد تهتدى نفوس بأسلوب قليل العلم ..
ولا تهتدى بأسلوب عالم غزير المادة لم يتمكن من
الوصول الى نقطة الاقناع فى قرارة النفوس .

(ج) ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار أن الدعوة
للايمان ابتداء على جانب كبير من الصعوبة .. لأنها
نقطة بعيدة من وضع .. الى وضع مختلف تماما ..
بينما الدعوة للأحكام العملية من السهولة بمكان ..
من حيث أنك تدعو اليها أناسا مؤمنين أصلا ..

واختلاف هذه المواقف يستدعى بصرا بحسن مواجهة
المواقف بما هو أهل لها من تدبير .

(د) قد تكون هناك جماعة متسلطة .. تمسك
بمقاليد الأمور فى الدولة .. ومشكلة الدعوة الأولى
مع هؤلاء أنها تطمع فى اصلاح نفوسهم أولا .. بل
المشكلة بالدرجة الأولى تتلخص فى تنبيههم الى خطر
مسلك الطغاة .. وأن لهم اخوة قبلهم طغوا فأهلكهم
الله .

مثل هذا الصنف يحتاج الى كثرة من الدعاة على
طراز خاص من الشجاعة الأدبية لا تنعقد أسنتهم عن
الحق .. ولا تنقبض أيديهم عن تغيير الباطل ..

يتعاونون على البر والتقوى فى مواجهة أولئك
الذين يتعاونون على الاثم والعدوان . وبهذا التعاون
يشد بعضهم أزر بعض ..

ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أبا موسى ومعاذ بن جبل الى اليمن . وقال لهم :
(يسرا ولا تعسرا . وبشرا ولا تنفرا . وتطاوعا) .

ان الانفراد قد يحمل على اليأس .. ومن هنا
كانت الصحبة أنسا للنفس تقوى به على أمر الله .

وحين نتأمل ما تقوله اللغة فى لفظ « أمة » نقرأ
قوله تعالى :

ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ..

وقوله تعالى : ومن قوم موسى أمة ..

فالأمة مأخوذة من الائتمام .. أى يأتهم بعضهم
ببعض .. ويتكاملون .. فى وحدة لا تنقسم
عراها .

فلفظ « قوم » أقل عدداً .. فهو أليق بالاطلاق
على الدعوة .. ولفظ « الأمة » أكثر عدداً فهو أليق
بالمدعويين ..

لكن اختيار لفظ الأمة للدعاة مع هذا لفت للأنظار
الى ما يشعر به اللفظ من معنى التعاضد والتناصر
والذى يشع من لفظ « الأمة » وما يفرضه ذلك من
ضرورة أن يقبس الدعاة منه سر وحدتهم
وقوتهم (١) .

وهو المعنى الملحوظ فى قوله تعالى :

(والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا
وعملوا الصالحات وتواصلوا بالحق وتواصلوا
بالصبر) .

(١) راجع فى هذا الموضوع الدعوة الى الاصلاح للشيخ الخضر
حسين .

هل تجوز الاستعانة بالغير؟

فى بيعة العقبة الكبرى قال صلى الله عليه وسلم :

(تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل (٢) والنفقة فى العسر واليسر • وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •

•• وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فيه لومة لائم ••
وعلى أن تنصرونى فتمنعونى اذا قدمت عليكم
مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم •
ولكم الجنة ان وفيتم) (٣) •

•• واذن •• وتأسيسا على هذا فلا مانع من الاستعانة بالغير والطمع فى حمايته •

الاستعانة بالكافر :

يقول الشاعر :

وليت من لم يكن بالحق مقتنعا

يخلى السبيل ولا يؤذى من اقتنعا

ولكن أعداء الحق لا يقتنعون به •• ولا يفسحون

(٢) الحرب والسلام •

(٣) السيرة لأحمد التاجى •

الطريق لتعبر كلمة الله الى قلوب متطلعة الى هداية
السماء ..

ومن واجب الدعاء أن يعالجوا الموقف بحكمة
تفوت على هؤلاء الماكرين أغراضهم .. وقد يباح
لهم الاستعانة بالكافر من منطلق الوفاء للدعوة
ذاتها ..

وفى تاريخنا شواهد تؤكد ذلك :

١ - حماية أبي طالب للرسول صلى الله عليه
وسلم .

٢ - نهبه للطائف يلتمس النصره من ثقيف .

٣ - لما عاد من الطائف أرسل للمطعم بن عدى
يطلب جواره . فأجاره .

٤ - لما عاد المسلمون من الحبشة لم يستطيعوا
دخول مكة الا استخفاء أو فى ظل حماية واحد من
المشركين .

٥ - الاستعانة بعبد الله بن اريقط فى الهجرة .

٦ - عرض ابن الدغنة جواره على أبي بكر
فقبل .

لكن أبا بكر رد اليه جواره لما أراد ابن الدغنة
التدخل فى عقيدته ..

فأفصح بذلك عن الشرط الأساسي لقبول هذه الحماية وهو :

ألا تكون على حساب المبادئ .. والا فلا تجوز بحال .

وعندما تأثر أبو طالب يوماً بعتاب قومه بشأن محمد قال له :

فابق على وعلى نفسك .

فقال صلى الله عليه وسلم :

والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري .. الحديث (١) .

معنى هذه الحماية :

١ - انها تهيب الجوارح أمام الداعية ليقول كلمة الحق في ظروف مناسبة .

٢ - عدم تبديد الجهد في رد العدوان المستمر .

٣ - من دخل في الاسلام بعد صلح الحديبية كان

(١) راجع السيرة النبوية .

أكثر ممن دخل بعده لما تهيأت الظروف وهدأت العاصفة .
٤ - المشرك المستعان به - على حد تعبير بعض العلماء - رجل يلتقط الشوك من طريق الداعية . . ومن ثم فهو مسخر لنصرتها - رغم أنفه - حتى تستوى على سوقها .

دلالة

الأمر بالمعروف

ماذا يعنى : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟
والجواب : أنه وظيفة تشترك بها الأمة فى ادارة دفة الحكم بهذه الرقابة الشعبية الممنوحة لها بحكم ايمانها بالله ورسوله . .

فلها حقها فى أن تقول : لا . . للمنحرف عن سواء السبيل . . ومعنى ذلك أن يقف كل فرد فى الأمة الاسلامية على ثغرة فى الدولة يقظا فلا تؤتى من قبله . .

وبذلك تسد كل منافذ الشر فلا تهب رياح الفتنة مع هذه الرقابة المستمرة . .

أى أن الجو يصير بهذه اليقظة مناسبا لنهضة الأمة واستثمار طاقاتها فى تربية صالحة من ديمقراطية هى (م ٥ - فقه الدعوة)

أعلى ما يتصوره بشر . . . وهى سر الخيرية التى هى
سمة الأمة الاسلامية .

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وحين توعد
الرسول صلى الله عليه وسلم الساحين عن الحق
فى قومه (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو
ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلايستجاب
لهم) كان ذلك الانذار ملفتا الى أهمية الكلمة الواعظة
الزاجرة فى تنقية ضمائر الأمة وتقوية صفوفها . .
قبل ان يصل بها السكوت الى مرحلة يستشرى فيها
المنكر ويسيطر الاشرار على مقاليد الأمور . .
فيعزلون الاخيار عن المنصة . .

هؤلاء الأخيار الذين لا يملكون حينئذ الا الدعاء
أن يكشف الله البلاء . . . وهيئات أن يستجاب لهم .
من حيث جاءت الدعوة متأخرة . وكان يجب أن تواكب
ظهور المنكر ابتداء قبل أن يستفحل ويستحيل
علاجه .

وإذا كانت هذه مسئولية العلماء الكبرى فإن
علماءنا يحملون العمامة مسئولياتهم أيضا والتي
تتلخص فى :

١ - أن يرفعوا للعلماء ما خفى حكمه من أخطاء
المجتمع ليقولوا كلمة الفصل فيه .

٢ - أن يسوقوا الظالمين الى الحكام . .
ولا يهدأون حتى ينفذ فيهم حكم الله شريطة ألا يترتب
على ذلك أشر منه .

٣ - عدم الاستكانة الى هذا الشعار :

« ليكنس كل منا فناء داره . لتعم النظافة »
لأننا اذا اكتفينا بذلك فسوف يحمل البعض الزبانه
الى الأماكن المكنوسة !!

وفى ضوء هذه العجالة يمكن أن نقول ان مواجهة
موسى عليه السلام بفرعون الطاغية انما هى مدخل
لنهضة الامة التى تتحطم امامها حواجز الانطلاق
لانقاذ شعب بأسره . . وايقاظ ملكة النقد فيه ليقول
كلمة الحق . . وصولاً الى رأى عام له وزنه فى تسيير
دفة الأمور فى اتجاه الاسلام . .

المواجهة :

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى كيف حفظ
موسى فى التابوت رضيعاً . . وما يثمره ذلك من
يقين ثابت بالله تعالى وينصره . . يكلفه سبحانه
وتعالى بمواجهة فرعون فى صحبة هذه الثقة الوطيدة
الناشئة عن سابق فضله تعالى عليه :

(اذهب أنت وأخوك بأياتى ولا تنيا فى ذكرى .

انذهبوا الى فرعون انه طغى فقولوا له قولنا لعلنا
يتذكر أو يخشى) .

ما هو القول اللين :

ذكر المفسرون (١) أن المراد بالقول اللين تكنية
فرعون بواحدة من كنى ثلاث :

« أبو العباس » « أبو الوليد » « أبو مرة » .

وقيل : ان القول اللين ما صرحت به آيات سورة
النازعات :

(فقل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك
فتحشى) وهو رأى ابن مسعود .

وفى المراد به يقول ابن كثير :

(قولاً له : ان لك ربا . ولك معادا . وان بين يديك
جنة ونارا) .

(وقال وهب بن منبه . قولاً له :

انى الى العفو والمغفرة أقرب منى الى الغضب
والعقوبة) .

(وقيل : قال له موسى :

(١)، القرطبي .

تؤمن بما جئت به • وتعبد رب العالمين • على
أن لك شبابا لا يهرم الى الموت • وملكا لا ينزع منك
الى الموت • وينسأ في أجلك أربعمائة سنة • فإذا
مت دخلت الجنة فهذا القول اللين (١) •

دلالة هذه الآراء :

١ - تجوز تكنية الكافر اذا كان وجيها في
قومه •• طمع في اسلامه أم لا • (لأن الطمع ليس
بحقيقة توجب عملا • وقد قال صلى الله عليه وسلم :
« اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » ولم يقل وان طمعتم
في اسلامه) ومن صورة الاكرام دعاؤه بالكنية :

وقد قال صلى الله عليه وسلم لصفوان بن أمية :
أنزل أبا وهب •

وقال لسعد : ألم تسمع ما يقول « أبو حباب »
« يعنى عبد الله بن أبى » (٢) •

٢ - تجوز عدة المدعو بشيء من منافع الدنيا ••
تجاوبا مع الفطرة الانسانية التى تستجيب لمثل
هذه المنافع •• وتعطى زمام أمرها لمن يلوح لها
بذلك ••

(١) القرطبي •

(٢) راجع القرطبي •

يقول سبحانه وتعالى :

(فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) (١) .

واذن فلا بأس من التودد والتحبب الى المدعو وان كان في قمة الطغيان :

و (هذه الآية فيها عبرة عظمية : وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار . وموسى صفوة الله من خلقه اذ ذاك . ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون الا بالملاطفة واللين . كما قال يزيد الرقاشى عند قوله « فقولوا له قولنا لنا » :

يامن يتحبب الى من يعاديه . فكيف بمن يتولاه ويناديه) (٢) .

(وقال يحيى بن معاذ في هذه الآية :

هذا رفك بمن يقول : أنا الله . .

فكيف رفك بمن يقول : أنت الاله ؟ !) (٣) .

(١) نوح ١٠ : ١٢ .

(٢) ابن كثير .

(٣) القرطبي .

وواجب الدعاة هنا أن يعوا هذا الدرس جيدا اذا كانوا فعلا يتحرون المضي على هدى القرآن :

(فاذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولا لنا . . فمن دونه أحرى بأن يقتدى بذلك . فى خطابه وأمره بالمعروف فى كلامه)(١) .

وعلى الداعية أن يفهم أيضا أنه بدعوته العصاة يغالب من طبائع النفوس ما يشبه الموجه العالية الطاغية . وتبدو صعوبة الموقف فيما يلى :

١ - انه يقف ضد ميولهم ونزعاتهم المندفعة نحو الشرور .

٢ - يعدهم بحياة أبدية . . لكنها متوقعة . . وليست بواقعة .

٣ - وانتظار المتوقع مقلق للنفوس . .

٤ - وتزداد نسبة القلق اذا ما تصورنا سهولة الحصول على المتع الدنيوية المتاحة . . والتي تطوق الانسان من كل جانب . .

٥ - عوامل الشر أظهر من دواعى الخير . .

٦ - النفوس أقرب الى المحسوس منها الى المعقول . .

(١) الموضع السابق .

٧ - كل أولئك يحجب النفوس فلا ترى الحق ..
ويعصرف القلب فلا يتجه اليه ..

وإدراك هذه العقبات عبر الطريق .. يفرض على
الدعاة أن يجتازوها برفق وحذر وحكمه .

على أن هناك فوائد أخرى تعود على الدعوة ذاتها
من وراء المصابرة وضبط النفس في بعض الأحيان
ومن هذه الفوائد :

١ - توفر الفرصة لفهم أوسع لتحركات
المعاندین .

٢ - تخليص الدعوة من التشويش عليها .

٣ - ربما تساءل المعاندون ازاء هذا الصبر
الجميل وقالوا :

ما فعل المحقون ذلك الا لوجه الله تعالى ..
لا لحظوظ أنفسهم .. والا فحظ النفس هنا هو رد
العدوان بمثله أو أشد ..

ولما لم يفعلوا .. دل ذلك على أنهم يتحركون طبق
دواعي الحق ولحساب ارادة عليا فوق حظوظ
النفوس .. وذلك ولا ريب مدخل الى تفاهم يحقق

الفهم الصحيح لمبادئ الاسلام .. والدخول فى رحابه (١) .

لماذا القول اللين ؟

يقول شاعر فارسى :

(ان الزمن لا يتواءم معك .. وأنت فى خصام مستمر مع الزمن) واذن فلا بد من محاولة تزامن فيها ذلك الزمن فى سيره .. وبدل أن تواجهه .. تستعلى به الى الأفق الذى تريد .. قرارا من عداوة مستمرة لا تحقق فيها أملك .. ان صدام الغرائز من شأنه أن يولد الانفجار .. فهى لذلك فى حاجة الى عملية استعلاء تقلم فيها حوافز الشراسة ودوافع الانطلاق الطائش .

ومعنى ذلك :

أن الداعية مطالب أحيانا أن يساير الأوضاع باللين .. لحساب غد تستقر فيه الأوضاع على حقائق الاسلام ..

وهذا ما يشير اليه الشاعر الهندى « حالى » .

(اتجه أنت فى اتجاه الريح) !

(١) راجع فى هذا المعنى : الدعوة فى عهد المكى

للدكتور متولى شلبى .

ولا يقصد بذلك أن تصير قشة تلعب بها الرياح ..
وانما هي ارادة تطويع الحوادث لتمتلك بالتطويع
زامها .

١ - وفي مجال الدعوة تمس الحاجة الى اللين
فى مواجهة الطغاة بالذات :

والعارفون بطبائع النفوس يقولون :
لاتخاشن العاصى وأنت تدعوه الى الحق .. فتجمع
عليه مرارتين :

مرارة التخلّى عن عادة أنس بها زمنا .. ثم مرارة
الشدة المزعجة له .. واذا كان اللين واجبا هكذا ..
فان نسبة أكبر من ذلك اللين ... لابد من توفرها
عند مواجهة طاغية كفرعون :

ان موسى عليه السلام لا ينتزعه من عادة يسهل
الاقلاع عنها .. بل انه يريد فطمه من طغيان تمشى
فى دماغه .. وحرمانه من شهوة التحكم فى حياة
البشر .. وهذا بالنسبة له مسألة حياة أو موت !

ومن ثم يتطلب الوضع نسبة من اللين أعلى ..
علاجاً للثورة المحتملة !

ثم .. ان الذى يدعوه موسى عليه السلام ليس
رجلا عاديا يكتفى من صور الرفض بالبعد عنك ! ..

لكنه يملك من وسائل القوى ما ينهى حياة الداعية
فى غمضة عين !

فاللين هنا أكبر أهمية ٠٠ حتى لا يجمع على فرعون
مرارتين كل واحدة ٠٠ أكبر من أختها وتأبيدا لذلك
يذكر الرازى كيف جاز لابراهيم عليه السلام أن يقول :
هذا ربى للكوكب المخلوق لما كان ذلك سبيلا الى انقاذ
أمة بأسرها .

قال الامام الرازى فى تفسيره :

(انه عليه السلام لما لم يجد الى الدعوة التى أمر
بها طريقا سوى هذا كان بمنزلة المكره على كلمة الكفر
وقلبه مطمئن بالايمان ، فانه يجوز له النطق بها ظاهرا
مع انكار قلبه ، وذلك ليتيسر له أن يورد الدليل
المبطل لقولهم وهم مستمعون له ، فاذا جازت كلمة
الكفر لبقاء شخص واحد ، فلأن تجوز لتخليص عالم
من العقلاء من باب أولى ، ثم قال : ومما يقوى هذا
القول أنه تعالى حكى عنه مثل هذا الطريق فى موضع
آخر وهو قوله تعالى « فنظر نظرة فى النجوم فقال
انى سقيم » أى عليل مريض ، وذلك لأن القوم
كانوا يستدلون بعلم النجوم على حدوث
الحوادث المستقبلية ، فوافقهم فى الظاهر مع أنه كان
بريئا عنه فى الباطن ليتوصل الى كسر الأصنام ،

فمتى جازت الموافقة لهذا الغرض فلم لا تجوز في
مسئلتنا لمثل ذلك) .

واذن . . فالتودد مطلوب اذا كان جسرا الى
مصلحة تتصل بالدعوة في مرحلة من مراحلها
وتصوير طبائع الجبابة يقول أيضا :

(من عادة الجبابة اذا غلظ لهم في الوعظ أن
يزدادوا عتوا وتكبيرا . والمقصود من البعثة حصول
النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى
بالرفق) .

٢ - حين نتأمل أحوال القلب البشرى في صلته
بالحق . . ندرك أثر القول اللين في تحقيق قدر من
النجاح مهما كان ضئيلا .

واذا بدت نعمة الله على المسلم في : زحزحته عن
النار أولا . . ثم في دخوله الجنة ثانيا . . فان الكلمة
الطيبة قد تنأى بالمنكر فتتهز من اصراره . . ليغير
موقفه الى حد ما . . ولو لم يدخل في دائرة الحق . .

وفي هذا المعنى يقول الفخر الرازى :

(أحوال القلب ثلاثة :

- أحدها : الاصرار على الحق .
- وثانيها : الاصرار على الباطل .
- وثالثها : التوقف في الأمرين .

وان فرعون كان مصرا على الباطل • وهذا القسم
أردأ الأقسام • فقال تعالى :

(فقلوا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى) فيرجع
من انكاره الى الاقرار بالحق • وان لم ينتقل من
الانكار الى الاقرار لكنه يحصل في قلبه الخوف فيترك
الانكار •• وان كان لا ينتقل الى الاقرار •• فان
هذا خير من (الاصرار على الانكار) •

أى أن شعور الخوف المنبعث من وراء القول
اللين •• لاشك تارك أثره على بطش فرعون كسراً
لحدته وتقليماً لأظافره ••

وربما شغله الخوف عن التدبير لضرب الدعوة •
وهذا الوقت مرصود بطبيعة الحال للدعوة التي تنشط
في غيبة الطغيان المشغول بمخاوفه •

وتصويراً لهذا الرفق يقول الشاعر الحكيم في
هذا المقام :

وأنت الذى من فضل من ورحمة
بعثت الى موسى رسولا مناديا
فقلت له يا اذهب وهارون فادعوا
الى الله فرعون الذى كان طاغيا
فقلوا له : هل أنت سويت هذه
بلا وتد حتى استقلت كما هيا !؟

وقولا له أنت رفعت هذه
بلا عمد؟ - أرفق (١) - ادا بك بانيا

وقولا له أنت سويت وسطها
منيرا اذا ما جنه الليل هاديا ؟

وقولا له : من يخرج الشمس بكرة
فيصبح ما مست من الارض ضاحيا؟

وقولا له من ينبت الحب فى الترى
فيصبح منه البقل يهتز رايبا ؟

ويخرج منه حية فى رءوسه
ففى ذاك آيات لمن كان واعيا ؟

وتأكيدا لهذا المعنى يقول الأستاذ محمد الراشد
مبينا أهمية الرفق الموصول بمعين الحق :

(أحسن شىء : كلام رقيق ، يستخرج من بحر
عميق ، على لسان رجل رقيق) (٢)

وأحسبه يعنى مثل هذا الكلام الرقيق ، الذى
استخرجته لك - أيها الداعية - من بطون هذه الكتب

(١) أرفق فعل تعجب . وبك فى موضع رفع . لأن المعنى
رفقت . وبانيا تمييز لأنه يصلح أن يجر بمن كما تقول : أحسن بزید
من رجل .

(٢) تاريخ بغداد ١٤ / ٢٠٩ .

العميقة • وغيرى انما خلط ما استخرجه من الساحل
بما ظفر به من الأعماق ، وأبيت أنا الا أن استخرج
لك من الأعماق فحسب ، ولم أرض الا كل نادر بليغ •
وستعلم كما من الرفق كانت تحمله قلوب هؤلاء
الرجال الذين أهدوا لك ثمرات تجاربيهم ونتاج
تأملاتهم ، فخلدت كلماتهم وسرت فى الناس ، معلنة
عما لها من الاتصال بسند الحق •

(ولن تخلد الكلمة على الاجيال الا أن اتصلت
بالحق والخير ، ودان لها من قوانين الله فى خلقه
سدد ، ومن الهامه لعباده مدد •

ورب بارقة يرمى بها سلطان مسلط ، أو صنم
مشهور ، فتدرى حيناً ، وتأتلق زماناً ، ثم تصمت
وتنطفئ ، وتكون كالشهاب يحور رماداً بعد التهاب ،
بما كان دويها من صوت الباطل لا الحق ، وائتلاقها
من زخرف الكذب لا الصدق •

ولا ينطق بكلمة الحق الخالدة الا عقل مدرك ،
وقلب سليم • الا قائل يعتد بنفسه ويثق برأيه ،
فيرسل الكلام أمثالا سائرة ، وبينات فى الحياة
باقية ، لا يصف وقتاً محدوداً ، ولا أمراً موقوتاً ،
ولا انساناً فرداً ، ولا حدثاً واحداً ، ولكنه يعم الأجيال
والأعصار ، والبلدان والأقطار •

وعلى قدر عظم القائل : تجد هذا العموم فى قوله ،
يبغى أن يجعل كلماته للناس منهاجا ، وفى ظلمات
الحياة سراجا وهاجا (١) .

من ثمرات القول اللين :

هل حقق القول اللين مقصوده ؟

والجواب : نعم . .

ولقد ظهر ذلك فى أمور ثلاثة :

- ١ - تراجع فرعون . . وتوقف بطشه وسطوته . .
وتوفرت الظروف المناسبة أمام الدعوة .
- ٢ - ايمان السحرة .
- ٣ - مؤمن آل فرعون .

١ - تراجع فرعون

(أ) كان فرعون بالأمس يقول : أنا ربكم الأعلى . .
ثم صار اليوم يخاطب موسى وهارون بأسلوب
آخر . . وذلك فيما حكاه القرآن الكريم .

(١) الشوارب لعزام / ٣٤٠ عن المنطق . محمد أحمد الراشد

(قال فمّن ريكما يا موسى ..

.. قال فما بال القرون الأولى ..

فقد اتسع صدره وتصور انها غيره - !! - وها هو
ذا يتساءل عنه .. مع ملاحظة أن فرعون دخل معهما
في حوار ولم يبدأهما بالعدوان واستعمال القوة ..
وكان هذا أسلوبه دائماً في معالجة الامور - وقد
أشار لمفسرون الى ذلك - واذ يناي الطاغية بنفسه
عن أسلوب العنف ابتداءً . فأولى بالدعاة ان يعوا
هذا الدرس المفيد يأتيهم من بعيد !

(ب) ولا ننسى كيف مهد لهذا التراجع بحكمة
موسى عليه السلام وأخيه هارون .. تلك الحكمة التي
اتجهت بالحوار اتجاهها مثمراً .. وكان من صورها
استماعها لرأى الطاغية مع وضوح بطلانه .

ولا بأس أن يستمع الحق لرأى المبطل .. ليبدأ
دور الداعية الايجابية بالكر عليه . وتحطيمه بالبرهان
تحطيماً لا يبقى له على أثر .

(ج) ولقد وقع التذكر من فرعون فعلاً . وان كان
بعد فوات الأوان :

يقول القرطبي :

(وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق . وحشى

(م ٦ فقه الدعوة)

وقال « أمنت أنه لا اله الا الذي أمنت به بنو اسرائيل
وانا من المسلمين » ولكن لم ينفعه ذلك)
وقد قيل :

- ان فرعون ركن الى قول موسى لما دعاه
- وشاور امراته فأمنت • وأشارت عليه بالايمان
- فشاور هامان

فقال : لا تفعل :

بعد أن كنت ملكا تصير مملوكا • وبعد أن كنت
ربا تصير مربوبا)

وعلى أى حال : فقد تركت الكلمة الطيبة
آثارها داخل الأسرة • • فأمن من آمن ومن لم يؤمن
بقي على رجاء الايمان •

٢ - ايمان السحرة

اذا لم يكن فرعون قد آمن • • فقد طأطأ الخوف
رأسه • • ومرت من فوقه نسمة الايمان ودلائل الهداية
الى قلوب متشوقة اليها • مقبلة عليها • • وهم
السحرة : لقد بلغ عددهم فى رأى بعض المفسرين
أكثر من عشرة آلاف • • أعلنوا كلهم ايمانهم برب
موسى وهارون • •

ولك أن تتصور كيف وصلت بركة القول اللين • •
وما يترتب على ايمان هذا الجيل المثقف • • وهم طليعة
الأمة وموطن الأسرة فيها •

ان بعض النفوس قد ترفض الحق جهلاً ..
لا عاداً .. وهذا يرمنا الرفق بهم انظاراً لساعه
حلاصهم ..

ولعل اتضاح معالم الحق هذه اللحظة يكون لهم
مدحلاً الى اعتناق الحق . بل والموت فى سبيله كما
فعل السحرة .

والعارفون بطبيعة النفوس وشموسها يقرزون :

ان الناس أعداء ما جهلوا .. بل ان النفوس
(مهما تغلغل فيها حب الشر الا أن تذليلها ممكن ..
اذا أفرغ لها الترغيب والترهيب فى قالب متين .
بحيث يصرفها عما هى متطلعة اليه) .

ضرورة الحذر :

(قالاً ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى .
قال لاتخافا اننى معكما أسمع وأرى) .

حكى القرطبى عن عامر بن عبد الله : (أنه نزل
مع أصحابه فى طريق الشام على ماء . فحال الأسد
بينهم وبين الماء . فجاء عامر الى الماء فأخذ منه
حاجته . فقبل له : لقد خاطرت بنفسك . فقال :

لأن تختلف الأسنة فى جوفى أحب الى من أن يعلم
الله أنى أخاف شيئاً سواه .. فلما بلغ الحسن
البصرى ذلك قال :

قد خاف من كان خيرا من عامر : موسى عليه السلام حين قال له :

« ان الملائمة يأمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين • فخرج منها خائفا يتربق قال رب نحنى من القوم الظالمين » • وقال :

« فأصبح فى المدينة خائفا يتربق » وقال حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم « فأوجس فى نفسه خيفة موسى • قلنا لا تخف انك أنت الأعلى » (١) •

فأنت ترى عامرا يغامر بنفسه فى محاولة من دونها الموت • • ويرى أن ثقة المسلم بربه تفرض عليه ألا يخاف من شىء سواه سبحانه • •

ولكن الحسن رضى الله عنه - تجاوبا منه مع طبيعة البشر - يضرب المثل بموسى عليه السلام • الذى سجلت الآيات خوفه • • ولا غضاضة فى ذلك • • وانما هو القدر المقرر فى طبيعة الانسان كبشر تعتوره مختلف العواطف والمشاعر المؤسسة على غرائز حب الذات والحرص عليها • •

لقد تربى موسى عليه السلام فى قصر فرعون • •

ورأى بعينه صور النكال بأفراد الشعب داخل
القصر ..

ثم هو قد قاس قدرته كداعية ازاء قدرة المدعو
وما يملك من قوى وطاقات .. فهو يتصرف .. ويتخذ
المواقف على هذا الأساس .. وجاء خوفه نتيجة
طبيعية لبعد المسافة بين القوتين :

هو وأخوه هارون فى جانب .. والدولة كلها فى
جانب آخر .. واذن فهو الخوف الذى يمكن أن نسميه
حذرا لا بد منه ..

والحذر كما جاء فى لسان العرب :

تيقظ .. وتحرز .. وتأهب لكل ما يسفر عنه
الغد من مفاجآت .. حتى اذا دهمت الداعية كان له
من سابق التقدير والتوقع والاحتياط ما يقلل من
آثارها على الأقل .. ومن التفريط فى جنب الدعوة
أن نتجاهل الواقع .. متواكلين .. والمفروض علينا
أن نعقلها .. ثم نمضى متوكلين .. والفرق واضح
بين الموقفين ..

من صور الحذر :

(حفر النبى صلى الله عليه وسلم الخندق حول
المدينة تحصينا للمسلمين وأموالهم . مع كونه من
التوكل على الله بمرتبة لم يبلغها أحد .

ثم كان من أصحابه ما لا يجله أحد : من تحولهم
عن منازلهم : مرة الى الحبشة . . ومرة الى المدينة
تخوفا على أنفسهم من مشركى مكة . وهربا بدينهم أن
يفتنوهم عنه بتعذيبهم .

وقد قالت أسماء بنت عميس لعمر لما قال لها
سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله
عليه وسلم منكم : كذبت يا عمر - !! - كلا . . والله
كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم
جائعكم . ويعظ جاهلكم . وكنا فى دار - أو أرض -
البعداء - أى فى النسب - البغضاء (١) فى الحبشة
وذلك فى الله ورسوله . وأيم الله لا أطعم طعاما .
ولا أشرب شرابا حتى أذكر ماقلت لرسول الله صلى
عليه وسلم . ونحن كنا نؤذى ونخاف .

قال العلماء : فالخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله
نفوس بنى آدم عليه كاذب . وقد طبعهم على الهرب
مما يضرها ويؤلمها أو يتلفها . قالوا :

ولا ضار أضر من سبع عاد فى فلاة من الأرض
على من لا آلة معه يدفعه بها عن نفسه من سيف

(١) البغضاء فى الدين وقول أسماء كذبت معناه : أخطات وقد
استعملوا كذب بمعنى أخطأ .

أو رمح أو نبل أو قوس وما أشبه ذلك) (١) .
ان الخوف من الأعداء - اذن - سنة الله في أنبيائه
وأوليائه مع معرفتهم وثقتهم به كما يقول العلماء .

(ومن تعريف - الحذر - لغة تبين لنا أنه يقوم على
أساس المعرفة وأخذ الحيطة . فالحذر يعرف مدى
ضرر المكروه المتوقع حصوله فيخاف من وقوعه خوفا
يدفعه الى أخذ الحيطة والتحرز . ومباشرة الأسباب
لمنع وقوعه أو لدفعه اذا وقع .

فهو ليس بخوف مشوب باستسلام وقيود وانخلاع
الفؤاد . واضطراب الفكر . وتشوش البال .
والبأس من الخلاص والاستسلام له قبل الوقوع .
ولهذا فالحذر بالمعنى الذى بيناه محمود غير مذموم .
وهو من صفات أهل الايمان والعقل السليم . والفهم
الدقيق لسنن الله فى الكون .

لا من صفات أهل الطيش والحماقة وقصر النظر .
وهؤلاء لا يعرفون الحذر . ولا تتسع له عقولهم .
لأنهم لا ينظرون الى أبعد من أنوفهم . ولا يحسون
بالمكروه المتوقع الحصول الا اذا وقع فعلا) (٢)

(١) القرطبي - الموضع السابق .

(٢) أصول الدعوة ٤٣٠ : ٤٣١ .

والآيات الكريمة والسنة المطهرة شاهدان بأهمية
الحذر ضممانا للسلامة وأماننا من رد فعل المفاجأة :
قال تعالى :

• (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم (٣) (٠٠٠٠٠٠)

(وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم
معك وليأخذوا أسلحتهم • فإذا سجدوا فليكونوا من
ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك
وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) (٤) •

ومن يتأمل حادث الهجرة بكل ظروفه وملابساته
يقف على كثير من صور الحكمة والحذر كي تتم الخطة
بنجاح ••

وليس هناك على ظهر الأرض من هو أوثق صلة
من محمد صلى الله عليه وسلم بربه ومع ذلك فقد كان
حذرا •• ولم يقدر ذلك في إيمانه بخالقه سبحانه ••

وهكذا يجب أن يكون الدعاء :

•• قد تفرض عليهم الظروف لونا من الحذر ••
•• فليأخذوا للأمر عدته •• فان وقع المحذور ••
كانوا له ••

(٣) النساء ٧١ •

(٤) النساء ١٠٢ •

والا ٠٠ فلم يخسروا بالاحتياط شيئاً .
على أن الخوف هنا لم يمنع موسى وهارون عليهما
السلام من الانطلاق بعد أن أمنهما ربهما سبحانه :
(اننى معكما أسمع وأرى)

ومعلوم أن الضمان هنا معناه :
حمايتهما من بطش فرعون ٠٠ أما حمايتهما من
تكذيبه ورده الدعوة فليس وارداً ٠٠ فلا بد أن يخوضا
المعركة ٠٠ وأن يدفعا ضريبة الجهاد صبراً وتحملاً ٠٠
بعد أن ضمن الله لهما البقاء ٠٠ ورد عنهما كيد
فرعون ٠٠

وتلك سنة من سنن الدعوات ٠٠ لبوطن الدعوة
أنفسهم على بعد الشقة وقلّة الزاد . ووحشة الطريق ٠٠
صحيح أن الباطل لن يتمكن من اسكات الحق
الى الأبد ٠٠

وسوف ينتصر الحق فى النهاية ٠٠
ولكن ٠٠ لا بد من الوصول الى هذا النصر المأمول
على جسر من المتاعب والتضحيات .

الحكمة تظل الموقف :
وانك لترى شواهد الجدال بالتي هي أحسن فى
تضاعيف الآيات الكريمة بعد ذلك ٠٠

ترى اللين ساريا كروح الحياة فيما دار بين الحق
والباطل من حوار .. ولم تبدر من موسى عليه السلام
كلمة نابية ولا جارحة ..

وما الذى يلجئه الى كلمة من هذا النوع ؟ !

ان معه من أنس الحق . ومعية الله تعالى . وثقته
بوعده .. وانتصار دعوته ما يثبت قلبه فلا يضطرب ..
وما يصون لسانه فلا يعبر الا عن الحق فى ثبانه
وشموخه ونزاهته !

ولعل فرعون - حين يفتح عينيه ليرى موسى
وأخاه .. رجلين .. فقط .. ثابتين ازاء مملكة
بأسرها يتربع من فوقها فرعون ومع ذلك يدعوانه الى
الحق فى ثبات الواثق بنفسه .. ربما فت ذلك فى
عضده .. وزلزل الأرض من تحت قدميه ..

وان .. فما دام الزمن يعمل لحسابنا - ولو على
المدى البعيد - فلنقل كلمتنا بهدوء .. ثم نمضى ..
وانها لتاركة آثارها حتما .. فى نفوس .. ان لم
تؤمن .. فسوف يعقد الاحراج ألسنتها .. وتكفينا
مئونة التشويش !!

!

ونقرأ قوله تعالى :

• (انا رســــولا ربك)

• (قد جنناك بأية من ربك)

•• فنلمح تكرار لفظ الربوبية مضافا الى فرعون
ترغيبا •• وتحببا •• فى جو من السلام والأمن لايسمح
لخواطر الانتقام أن تثور فى نفس فرعون :

حكم القاء السلام

على الكافر

(والسلام على من أتبع الهدى)

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه :

(أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أى الاسلام خير؟ فقال : تطعم الطعام • وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) (١) •

قال ابن وهب وابن عيينة ومحمد بن كعب :

يجوز ابتداء السلام على كل أحد ولو كان كافرا •
وقد استدلوا على هذا بالآيات الكريمة •
(وقولوا للناس حسنا) •

فالآية تأمرنا بأن نقول للناس - وليس للمسلمين فقط - من القول أحسنه •• والسلام داخل فى هذا الأمر •• لأنه قول حسن ••

وقوله (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين •• الآية) (٢) ومن صور البر أن نسلم عليهم ••

(١) أخرجه الشيخان والنسائى « كتاب الايمان » •

(٢) المتحنة •

ونتلف معهم لا تزلفا . . ولكن تألفا . . وقوله حكاية
عن ابراهيم لأبيه .

• (سـلام عليك) (١)

• وقوله (فاصفح عنهم وقل سلام) (٢)

• وجمهور الائمة على أنه لا يبتدأ الكافر بالسلام . .
ولا العاصى . . تأديباً له حتى تظهر توبته .

والأصل فى ترك السلام على المؤمن الذى اقترب
ذنباً ما صنعه النبي صلى الله عليه وسلم بكعب بن
مالك وصاحبيه حين تخلفوا عن غزوة تبوك . فقاطعهم
النبي والمؤمنون خمسين يوماً . . حتى (ضاقت عليهم
الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن
لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم) (٣)

وأما عدم السلام على الكافر فالأصل فيه قوله صلى
الله عليه وسلم :

(لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا
لقيتموهم فى طريق فاضطروهم الى أضيقه) (٤)
رواه مسلم .

(١) مريم ٤٧ .

(٢) الزخرف ٨٩ .

(٣) القوية ١١٨ .

(٤) حمله الأكثر على التحريم وقيل التنزيه . قال القرطبي :

قال المانعون :

هذا نص خاص تقييد به العمومات المخالفة له .
كما هي القاعدة الاصولية . واجابوا عن ادلة
المجوزين :

بأن سلام ابراهيم لم يكن سلام تحية . . بل سلام
اعراض ومشاركة . . وكذلك يقال فى (فاصفح عنهم
وقل سلام) وأشباهه .

وربما شهد للمجوزين قوله صلى الله عليه وسلم :

(المسلم من سلم الناس من لسانه ويده) (١) .

فاسلام المرء يفرض عليه ألا يكون مصدر أذى لغيره
من الناس جميعا . مؤمنهم وكافرهم . . عاصيهم
ومطيعهم . . لأن اسمه مشتق من الاسلام . . الذى هو
فى جوهره مسالمة وتعاطف وبر . .

ليس معناه اذا لمقيمتهم فى طريق واسع فالجنوهم الى حرفة حتى يضيق
عليهم . لأن ذلك اذى لهم وقد نهيتنا عن اذاهم بغير سبب .

بل معناه : اذا كنتم فى طريق ضيق فلا تتنحوا لهم عنه تضيقا
على انفسكم والكراما لهم .

وقال غيره معناه : لا تجعلوا لهم التصدر فى جادة الطريق . بل
جعلوا لهم جوانبها . واتفقوا على عدم ايدائهم بالتضييق حتى يصدمهم
عداؤا أو نحوه .

(١) أخرجه الترمذى والنسائى .

والقاء السلام تحقيق لهذا المعنى .. بقدر ما يؤدى
تركه الى الوحشة والخوف ..

روى البيهقى فى شعب الايمان عن أبى أمامة رضى
الله عنه .. أنه كان يسلم على كل من لقيه فستل عن
ذلك فقال :

(ان الله جعل السلام تحية لامتنا . وامانا
لأهل دمتنا) .

وفد فرق بعض العلماء بين المحاربين وأهل الذمة ..
وخص الطبرى النهى بما اذا لم يكن هناك ما يدعو الى
البدء بالسلام من حق صحبة أو جوار أو مكافأة أو نحو
ذلك .

وهذا التفريق مؤسس على صريح الآيات الكريمة
من سورة الممتحنة والتي فرقت بين نوعين من الكفار :

فالذين لم يقاتلونا .. ولم يخرجونا من ديارنا ..
لا مانع من برهم والاحسان اليهم .. أما من بلغ بهم
عداؤهم لنا حدا قاتلونا فيه وأخرجونا من ديارنا فنحن
ممنوعون من برهم .. وهكذا كله فيما اذا كان السلام
بصيغة : السلام عليكم ..

أما اذا كان بغير هذا الخطاب مثل

(السلام على من اتبع الهدى) و (السلام علينا وعلى

عباد الله الصالحين) فلا خلاف فى جوازه لثبوته عنه
صلى الله عليه وسلم فى دعوته الملوك والأمراء الى
الاسلام .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتألف المشركين
وأهل الكتاب . . وسوغ ذلك صدوره لا عن اعزازهم
واكبارهم بل لأنه عنوان شففته صلى الله عليه وسلم
على الخلق ورحمته بهم .

• (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين)

هذه الرحمة التى وصلت الى حد تشميته من عطف
من اليهود بقوله :

• (يهدىكم الله ويصلح بالكم) (١) .

وقد قصدنا بهذا البيان فتح أبصار بعض الدعاة
الى ما فى الاسلام من رحمة ونداوة تجذب القلوب .
وتنشر الا من السابغ فى ربوع المجتمع .

وشيوع الأمن فى المجتمع يوفر الفرص لعمل
اسلامى بلا معوقات . . وبلا مشاكسات كلامية تستنفد
الوقت والجهد . .

ولقد قال سلفنا الصالح كلمتهم . . وبقي علينا أن

(١) يراجع هذا الموضوع فى (المختار من كنوز السنة) للمرحوم
الدكتور محمد عبد الله دراز .

نتاسى بهم . . . لنكون سلما للناس . . . وتلك سمة
الاقوياء . . . الذين يطلون على غيرهم من عل . . . بعين
مشفقة . . . ولا ينظرون اليهم بدافع من تكبر لا يتمر
الا الشوك . . .

لقد كان السلام هنا . . . صورة من صور الترغيب . . .
ربما تفتحت به النفس على حقيقة القضية المطروحة . . .
والترغيب مرحلة أولى . . . مرصودة لحساب هذه
الفائدة المتوقعة . . .

الترهيب :

فاذا لم يجد الترغيب . . . فقد حان وقت الترهيب . . .
(انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب
وتولى) . . .

ويلاحظ أن موسى عليه السلام لا يواجه فرعون
بالعذاب مباشرة . . . ولكنه يشير الى أن قوة عليا تملى
علينا ما نقول . . . وما علينا الا البلاغ . . . بلاغ حقيقة
واضحة هي :

أن العذاب مرصود لكل من كذب رسل الله وتولى
عن الحق بعد ظهوره . . . وعلى كل طاغية أن يختار
لنفسه ما يحلو . . .

وحين يخرج فرعون من الموضوع .. موضوع
النزاع فلا يحاول مناقشة القضية المطروحة .. بل
يفر الى مسارب الماضى فى محاولة للسؤال عن فلان
أو علان من الغابرين .. ما مصيره ؟ حين يفعل ذلك
لا يشدد الرسول عليه النكير .. ولا يضيق عليه
الخناق .. ولا يضاعف من احراجة عند فشله فى
مواجهة جواب الرسول .. وانما يعود به .. - برثق
ولين الى ذات القضية .. قضية التوحيد .. ولا يدعه
ليهرب منه فى غيابات التاريخ .. فيفتح بصره على
مجالى الطبيعة وما فيها من صور الجلال وانجمان
مما يؤكد أن الله موجود .. وأن الايمان به
ضرورة ..

• (الذى جعل لكم الأرض مهذا .. الآيات)

من أساليب الطغاة :

وعندما يعلن الباطل افلاسه فى ميدان البحث
والنظر .. يلجأ الى الحيلة سبيلا الى لم شمله المبعثر
أمام الناس .. وها هو ذا يستدعى السحرة ..
مدخلا فى روع الناس أن موسى يريد اجلاءهم عن
الوطن .. وناهيك بمثل هذه الدعوة وصلتها بغرائز
الناس المتشبهين أساسا بمستتراد آمالهم .. وهو :
وطنهم ..

(قال أجبئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك

يا موسى) •

(ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من ارضكم بسحرها) .

وعندما يجمع الباطل جنده . . . وفى لحظة الزهو بما يمكن ان يحققه من نصر . . . لا ييس موسى عليه السلام دوره الاساسى . . . وهو : الدعوة الى الله . . . انه وان اوجس فى نفسه خيفة . . . لكن ثقته بالنصر اكبر من حوفه . . . بعد ان اخذ من ربه العهد انه معه يسمع ويرى . . . ومع هذا . . . فهو يعاود انذار قومه بسوء العاقبة . . . داعيا اياهم الى مراجعة النفس . . . قبل ان يدهمهم العذاب تم لا ينصرون . . .

(قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسختكم بغذاب وقد خاب من افترى) .

ونلاحظ فى الآية الكريمة نبرة التهديد عالية . . . كرد فعل لهذا التنادى بالعدوان الذى لا يجدى معه الترغيب . . . وانما يناسبه التهديد بالمصير المروع . . . ليكفوا ايديهم . . . ويعودوا الى الله . . .

ومع أنهم مفترون . . . لكنه لا يواجههم بسوء مصير المفترين مباشرة . . . وانما يظل وفيا لمبدئه فى الانذار غير المباشر :

(وقد خاب من افترى) .

ليس من أهداف الدعاة الى الله أن يكسبوا
الجولة أمام الباطل كأشخاص .. فليست المسألة
انتصارا رياضيا يضيف الى الانسان رصيذا فى دنيا
الجوائز والكتوس ! ولكن .. اهم من ذلك حله أن
تحقق الدعوة انتصارا .. فذلك هو الامل الوحيد ..

كان لهذه الكلمة الحكيمة فعل السحر فى صفوف
القوم .. بما أحدثته من اضطراب وبلبلة .. انبها
باعلان السحر ايمانهم :

• (لقد أغنت حكمه عن سيف وحساب)

• واستثمر بها طاقات خير دفينة فى فطرة الناس
• قدم لها منه القيادة • فقدمت له منها المتابعة

ونقرأ فى ظلال القرآن :

قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا
فيسختكم بعذاب وقد خاب من افتري فتنازعوا أمرهم
بينهم (...)

(وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة عن عقيدة ..
كالقذيفة فى معسكر المبطلين وصفوفهم • فتزعزع
اعتقادهم فى أنفسهم وفى قدرتهم • وفى ما هم عليه من
عقيدة وفكرة • وتحتاج الى مثل هذا التحميس
والتشجيع • وموسى وأخوه رجالان اثنان • والسحرة

كثيرون • ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته
وماله ••

ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما الذى يسمع
ويرى •

ولعل هذا هو الذى يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية
المتجبر • وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون •

فمن هو موسى • ومن هو هارون من أول الأمر
حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما •

ويجمع كيده ثم يأتى • ويحشر السحرة ويجمع
الناس ••

ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة ؟

وكيف قبل فرعون أن يجادله موسى ويطاوله ؟
وموسى فرد من بنى اسرائيل المستبعبدين المستذلين
تحت قهره ؟

انها الهية التى القاها الله على موسى وهارون
وهو معهما يسمع ويرى •• وهى كذلك التى جعلت
جملة واحدة توقع الارتباك فى صفوف السحرة
المدربين • فتحوجهم الى التناجى سرا • والى تجسيم

الخطر . واستثارة الهمم والدعوة الى التجمع
والترابط والثبات (١) .

وبعد :

فان على الداعية أن يكون في نظر المدعو على أجمل
ما تكون صورة الانسان . . فان لم يكن كذلك . . فان
قبح الصورة المادية من شأنه أن يطمس نور الحق
فلاتراه العيون . .

(ان الباطل لا يثبت أمام الحق . مهما ابتداء الحق
ضعيفا . ودلائل الوجود في تاريخ العالم شاهدة بذلك
ولدينا الشواهد الملموسة :

نور الأنبياء في كل عصر :

فقد كان يبدو في العالم صغيرا . . الا أن أنصاره
لما تعهدوه بالحكمة والاخلاص . . كان يكتسح كل
باطل في طريقة .

ويلجأ أهل الباطل اذا ارتفع صوت الحق في
جوههم الى سلاح الكذب والخذعة . حيث هم
لا يستطيعون الثبات على باطلهم . وقد كشف الله
سواد ظلمته بنور الحق والحكمة جاهلين أو متجاهلين
أن قوة النور تحل كل تمويه وتضليل . ولهذا كانت

(١) في ظلال القرآن .

الصراحة فى القول من آداب أهل الحق • والختل
طريق المبطلين) (١) •

وقد حلل الله تعالى بنور الكلمة الصادقة ظلمة
الباطل أمام السحرة فسجدوا •• وأعلنوا إيمانهم ••
ولم يكن ذلك فقط دورهم ••

بل إن إيمانهم ولد قويا •• لم يستسلم لتهديد
فرعون الذى كان يمتلك زمامهم بالأمس ••

أنه الإيمان الذى بلغ من قوته أن تغفل فى
فى الأعصاب وملك عليهم وجودهم كله •• فرصدوا
حياتهم •• تلك التى يمكن أن يتحكم فيها الطاغية ••
رصدوها لله تعالى •• فى سبيل دار هى الحيوان
لو كان الطغاة يعلمون •

(قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى
علمكم السحر فلا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف
ولأصلبكنم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا
وأبقى •

قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى
فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة
الدنيا •

(١) الدعوة والدعاء للمرحوم الشيخ هلى الزنگلوى •

انا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وماأكرهتنا عليه
من السحر والله خير وأبقى) ويتحول السحرة انى
دعاة يأخذون دورهم فى كتيبة الايمان .. دعما للحق
ونشرا لمبادئه :

(انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها
ولا يحيى ومن يأتته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك
لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) .

وتلمح فى خطاب السحرة بركة من بركات موسى
عليه السلام .. وقبسا من نور حكمته .. عندما
يواجهون الطاغية بالحكمة كما تعلموها من موسى ..
فلا يدفعون فرعون بالاجرام - وان كان كذلك - فلعل
لحظة الهداية - قد حانت .. فيمضى مثلهم على
الطريق .. فليستمسك الدعاء بالأمل فى نصر الله
وان لم تلح فى الأفق بادرة عزاء .. فمقلب القلوب
والأبصار .. قادر على أن يغير الموقف لحساب الحق
فى لحظة واحدة .

الدعاة :

وعقدة الحكام (١) :

ومن تمام الفائدة أن هذا نختم هذا البحث الموجز بكلمة طيبة للسيد وحيد الدين خان (١) يتحدث فيها عن الامكانيات الجديدة التي تمكن للدعاة فى الأرض والتي فتحت فرصا جديدة أمامهم للدعوة . . بلا صدام مع الحكام . . ليتخلوا عن هذه العقدة التي تفرض عليهم أحيانا حربا فى غير ميدان !

يقول العلامة وحيد الدين خان :

(ان شيين قد ظهرا فى وقت واحد فى العصر الحديث وهما) :

• حرية الرأى • وتطور وسائل الاعلام والاتصال •

ان حرية الرأى قد أصبحت حقا أساسيا من حقوق الانسان فى سائر العالم خارج الكتلة الشيوعية . .

•••• والشئ الآخر : هو المطبعة التي مكنت نشر فكرة ما فى المجتمعات البشرية بسرعة كبيرة :

لقد ولد السيد المسيح فى قرية الناصرة الفلسطينى قبل ألفى سنة . . وكان انسانا عظيما ورسولا عظيما •

(١) فى رسالته : المسلمون بين الماضى والحاضر والمستقبل •

ولكن صوته لم يصل الا بصعوبة باللغة خارج
نطاقه الاقليمي .

أما اليوم : فيستطيع أى انسان - باستخدام وسائل
الاعلام الحديثة - أن يخاطب العالم كله فى وقت واحد .

ان هذه الامكانيات قد فتحت لنا فرصا وأبوابا جديدة .
ويمكن القيام بالدعوة ونشر الاسلام على نطاق لم
يسبق له مثيل فى التاريخ . بشرط عدم الاصطدام سياسيا
مع الحكام .

ان الوسائل الحديثة قد مكنت الدعاة من أن يخاطبوا
العالم كله فى وقت واحد . فتصل رسالة الله الى كل
أرجاء العالم . . فلا تبقى أذن لم تسمع بها . ولا عين لم
تشاهدها .

ان الحركات الحديثة التى قامت على هتاف ثورة
الاسلام السياسية مهما بلغ اخلاص أصحابها . . قد
شوشت وأفسدت الأمر :

فالثورة السياسية لا تقوم الا على الأرضية الفكرية
الراسخة .

ان الأرضية الفكرية لصالح الاسلام قد توفرت من
ناحية الامكان منذ مدة .

ولم يكن على رجال الحركات الاسلامية الحديثة سوى أن يتيحوا لتلك الامكانيات العمل والنشاط في مجتمعاتهم .

ولكنهم أقاموا العوائق أمام الاسلام بفتحهم جبهات سياسية غير ضرورية .

وليس من باب المبالغة أن أقول :

ان امكانيات الاسلام السياسية كانت ستكون أكثر قوة اليوم لو لم تظهر الحركات الاسلامية السياسية في القرن العشرين .

ولنفهم هذا من مثال حركة تحرير الهند :

ان شئون السياسة والحكومة كانت تعتبر حكرا على « القصر الملكي » في العصور القديمة . فكان كل من يستولي على القصر بفضل قوته وبراعته . . هو الحاكم القانوني . وفي مثل هذه الأحوال دخل الانجليز الى الهند . متسلحين بالامكانيات التي أفرزتها الثورة الصناعية .

ومثلما كان « باير » المغولي قد استولى على شمال الهند بمدفعيته المتقدمة سنة ١٥٤٦م . . أكمل الانجليز سيطرتهم على الهند عام ١٨٥٧ متسلحين بالقوة الميكانيكية .

ولكن العلم الحديث الذى مكن الانجليز من القوة
المادية أفرز كذلك علوما سياسية واجتماعية جديدة .
أخذت تغير الأرضية الفكرية القديمة . فهذه العلوم
انتجت فكرة « الديمقراطية » و « الجمهورية » التى
قضت على فكرة الحكام السلاطين . وأدت الى ظهور
فكرة « القومية » التى قضت على حق شعب ما فى
السيطرة على شعب آخر .

وهكذا . . فقد حكام الهند الأوربيون فى القرن
العشرين - بسبب أفكار نبتت فى بلادهم نفسها -
فقدوا الأساس الذى مهد لهم الاحتلال أراضى الشعوب
الأخرى فى القرون السابقة .

ولكن الذين انبروا فى النصف الأول من القرن
العشرين لتحرير الهند سياسيا أخفقوا فى استخدام
هذه الأرضية الفكرية . . وضحى آلاف مؤلفات
بحياتهم . ولكنهم فشلوا كلهم فى تحرير الهند .
والسبب فى ذلك أنهم كانوا يتحدثون الانجليز فى
الميدان العسكرى حيث كان عدوهم لا يزال متفوقا
عليهم بصورة حاسمة .

والمهاتما غاندى (١٨٦٩ - ١٩٤٨) هو أول شخص
درس الأوضاع بعمق وتوصل الى فهم السر
النتائج العكسية التى كانت أساليبنا تؤدىنا اليها .

لقد أظهرت له دراسته للغرب أن التاريخ السياسي العالمي قد دخل عصرا جديدا . لقد فهم أن الانليز قد فقدوا الأرضية الفكرية التي أتاحت لهم السيطرة على الهند . ولكن أسلوبنا القائم على العنف يحول دون استغلال الأرضية الفكرية الجديدة . . . وكان اعلان غاندى شعار « اللا عنف » بدلا من « العنف » كان هذا الاعلان أخطر على الانجليز من كل الحركات المسلحة التي كانت تعمل فى الهند . . .

لقد كانت لديهم مبررات وحجج للقضاء على العنف بالعنف . . . ولكنهم كانوا يجهلون مواجهة طوفان « اللا عنف » .

ويقال أن حاكما انجليزيا لاحدى المديریات الهندية أبرق للحكومة عندما واجه «اللا عنف» حينذاك يقول :
(يرجى ابراق التعليمات لكيفية قتل نمر «اللا عنف») !! .

وحين انتهى العنف والصدام المسلح . بدأت العوامل الفكرية تقوم بعملها وأخذت نظريات الجمهورية والقومية تسحب البساط من تحت أقدام الانجليز . . . الى أن قرروا الرحيل عن البلاد .

وهكذا كسبنا باللاعنف الحرب التي كنا قد خسرناها بالعنف !

والاسلام أيضا يواجه وضعاً مماثلاً :

ان الحرب السياسية تدور على قدم وساق فى شتى بقاع العالم لأجل النهضة الاسلامية . الأمر الذى أدى الى وقوف الاسلام ندا للحكام السياسيين .

وبسبب هذا الاصطدام بين الاسلام والحكام لا تنشط الامكانيات الفكرية الى أفرزها العصر لصالح الاسلام .

• اننا لو أبعدنا الاسلام عن موقف الند السياسى .
• فسنفاجاً بزوال كل العقبات الزائفة الاصطناعية .

ولو بدأت القوى المسلمة تخدم الاسلام بالجوانب والاساليب الايجابية لنشطت الامكانيات العصرية توفر الجو لصالح الاسلام - وليعرف الناس الذين يستغربون هذا الأمر عما قريب أن العودة من ميدان المواجهة ستكون « فتحة مينا » تماماً كما كانت بالأمس فى صدر الاسلام (١) .

وتلك تجربة رجل عرك الحياة . . . ومارس الدعوة قولاً وعملاً . . . يقدم اليها خلاصتها فى كلمات يودعها اخلاصه لقومه . وولاءه لدينه . وأمله فى أن يظهره الله على الدين كله . . .

(١) يشير الى هدنة الحديبية .

وإذ يستبعد العنف سبيلا إلى نشر الدعوة في مواجهة المستعمرين .. فإن العنف يكون أبعد وأبعد ونحن تخاطب الحكام من أبناء ديننا .. لقد حدثني أستاذنا الشيخ محمد الغزالي عن أهمية الدعوة اليوم عن طريق التربية .. صياغة للطفل المسلم في البيت .. وترسيخا للتعاون على البر والتقوى بين صفوف الجماعة .. تعاوننا يؤتى أكله في كل نواحي الإصلاح الاجتماعي .. رخاء .. وأمنا .. إن الأفعال الساخنة على صفحات مجلة تندد بالحاكم .. يستعدى الحاكم عليها .. بالإضافة إلى سلبيته وعدم جدواه في تحقيق تقدم يذكر على طريق الإصلاح .

(إن الحسرة والتألم وتصعيد الزفرات ليست سوى وسيلة سلبية لا تجرح قوى الباطل .

بل تخدشها ..

وهي لا بأس بها .

لكنها تنقلب إلى أمر بالغ الخطورة : إذا لم يعقبها عمل إيجابي مثمر .

إذ تكون وسيلة لامتناع النعمة على الأوضاع الفاسدة . ومن ثم . الركون إليها . وعلى أحسن الفروض . استمرار هذه النعمة . ولكن بشكل جامد

لا حياة فيه • يؤدي الى شلل الحركة • وليس أفضل
لقوى الباطل من هذا الوضع (١) •

ان الصياح العالى ما هو الا احتجاج •• أعنى
مجرد الاعلان عن شعور المرارة ازاء قضية ما ••
وذلك وحده لا يكفى ••

لأنه وقفة على الاطلال •• تبكى •• أو تتباكى ••
وذلك جهد ضائع مالم يكن للمتباكين دور حقيقى
فى ابراز قيم الاسلام وأسسها التى أعدها ليقوم عليها
البناء الاجتماعى •

يقول المرحوم الشيخ على الزنكلونى :

(ان حياة الاسلام اليوم على وشك أن يأتى الزمان
على ما بقى لها من آثار وأطلال • والناس يتساءلون
عن السبب) :

وأهل الدين واجمون •

ومن حين لآخر يجتمعون فيحتجون • أو يحملون
الناس على الاحتجاج •

على أن الاحتجاج ليس دفاعا •• وانما هو مجرد
اظهار شعور بالشىء المحتج عليه وحمل الناس على

(١) الدعوة والدعاة ٢٦٥ : ٢٦٦ •

اظهار الشعور دون أن يندفعوا اليه بأنفسهم كالتيار الجارف دليل على ضعف الشعور .

• وكل ضعيف فى الوجود أثره ضعيف .

وقد جهل القوم أو تجاهلوا : أن الدفاع عن أطلال الدين البالية اذا لم يتصل بأصل متين يعتمد على العقل . وعلى الحياة الفاضلة فى نظر العقل . . مع الاجتهاد فى اظهار الاسس القوية التى كانت لهذه الآثار والاطلال بحيث يتلاقى تجديد البناء المحكم وسرعة السير فيه مع الدفاع عن تلك الآثار . . ان لم يحصل هذا . . فلا قيمة للدفاع مهما قوى . فضلا عن ضعفه .

على أنه محال أن يقوى حتى تظهر شدة ارتباطه بالقواعد المحكمة . والأصول التى يطمئن اليها العقل فى أنها عنصر لابد منه فى بناء الوجود وسعادته وجماله . . .

ان الدينيين عامل كبير فى تقويض بناء الاسلام :

لأن الحياة المادية بقوتها الحقيقية والمزيفة تهاجم الاسلام فى كل يوم . . وللقوة فعلها وأثرها . . والوجود كله خاضع للقوة .

فالعقول بفطرتها مستعدة للخضوع أمام قوة الحجة
وبريق البيان . كذلك الماديات فى النفوس البشرية
خاضعة لما حولها من القوة الدافعة للأهواء
والشهوات .

وإذا كان جو الانسان العقلى والمادى مزدحما
بجيوش الفساد وأسلحته وذخائره وليس للخير أقل
جيش وأضعف عدة تقف فى وجه جيوش الشر
الجرارة . . فعلى أى مستند من العقل تقل الشرور . .
وتنعش روح الاسلام ؟

وبأى حجة تختصم مع الخارج على الاسلام من
أبناء المسلمين وهو لا يعرف الاسلام وهو لم يستظهر
جماله وقوته العقلية . والمادية فى أهله بجانب
الشرور المنتشرة ؟

ان التكليف بذلك تكليف بما لا يعقل .

فليبرز الاسلام الحقيقى أولا : فى جماله وقوته
العقلية والمادية .

وهنا تتسرب جيوش الشر الى مراقدها فى بطن
الأرض أو تنهزم شر انهزام .

وان تعجب من مسلمين وحماة دينهم من شىء فليكن
عجبك أشد من أنهم يؤمنون ببعض الدين ويكفرون
ببعض . كما فعل اليهود من قبلهم :

- فالدين كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم
- وليس بعضه أولى بالدعوة له والتمسك به من بعض

فليست الصلاة والصوم والعبادة اللسانية أولى
باسم الدين مما يمس المال ويدفعه الى الأعمال
الشاقة • ويوجب ارتياض النفس على المروءة وعلو
المهمة • والنهوض فى سبيل الرقى الفكرى والحياه
القوية • بل قوام الاسلام فى الحقيقة هو الكمال
الانسانى الذى يفيض بقوة العقل والمادة معا •

وما العبادات وأشباهاها مما لا يكلف المسلم كبير
عناء •• الامظاهر بناء ذلك الجمال •

العلماء •• أيضا !

ولم يسلم العلماء من الهجوم •• والقسوة فى النقد
الجارح !

وقد شاهدت ذلك الشاب الذى يضرب بقبضته القوية
منبر المسجد قائلا :

يا طول •• ما قيل فوقه من كلام !! وأين نتيجته ؟ !!
كما سبق أن قلنا • انه •• يشجب - !! - كل جهود
العلماء •• لأنهم « حكوميون » ولا أمل فيهم على طريق
الاصلاح هكذا لمجرد أنهم موظفون يضرب بجهادهم
عرض الحائط ! ولا ننسى الحملة الضارية التى تشن
على عالم لأنه رأى رأيا قد يكون خاطئا •• لكن الهجوم

المضاد - ! - قد يفجر فى الرجل دوافع العناد فلا يعود
الى الحق كيذا وعنادا !

لقد كان العلماء فى الماضى يأمرؤن الحكام ..
ويعظونهم .. ويدفعونهم عبر الطريق المستقيم ..

بقدر ما شددوا النكير على المنحرفين منهم .. وهذا
سر احترامهم لدى الجمهور .. ولما تقدمت بالناس
الحياة .. كسدت سوق العلماء .. وانفض عنهم
الحكام .. ولم يقفوا بهم فى مراكزهم العالية .. والتى
يرشحهم لها وضعهم الدينى .. فخف وزنهم لدى
الجمهور .. واستهان بهم العامة .. وانفضوا من
حولهم ليتلقفهم أنصاف المتعلمين .. والمتدينين ..
فكانت الخسارة فادحة .

ونحن مطالبون باحترام العلماء فى عصر يحسون
فيه بالغبرة فى أوطانهم .. والافان القذيفة الآتية اليهم
من أحفادهم .. والعاملين معهم فى حقل الدعوة ..
توسع شقة الخلاف .

مؤمن آل فرعون

يقول الحق سبحانه وتعالى :

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين - الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب - فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وماكيد الكافرين الا فى ضلال - وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد - وقال موسى انى عدت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب - وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينان من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب - يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا قال فرعون ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد - وقال الذى آمن يا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب - مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد - ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد - يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل

الله فما له من هاد - ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات
فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن
يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف
مرتاب - الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان
أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع
الله على كل قلب متكبر جبار - وقال فرعون يا هامان
ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب - أسباب - السماوات
فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا وكذلك زين
لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون
الا فى تباب - وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم
سبيل الرشاد - يا قوم انما هذ الحياة الدنيا متاع وان
الآخرة هى دار القرار - من عمل سيئة فلا يجزى
الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب -
ويا قوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار -
تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به مالىس لى به علم وأنا
أدعوكم الى العزيز الغفار - لا جرم أنما تدعوننى اليه
ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وان مردها الى
الله وأن المسرفين هم أصحاب النار - فستذكرون
ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير
بالعباد - فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون
سوء العذاب (١) .

سورة غافر :

(هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل • قضية
الايمان والكفر •• قضية الدعوة أو التكذيب) •

• وأخيرا قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق •
• وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين •

وفي ثنايا هذه القضية تلم السورة بموقف المؤمنين
المهتدين الطائعين • ونصر الله اياهم • واستغفار
الملائكة لهم • واستجابة الله لدعائهم • وما ينتظرهم
في الآخرة من نعيم (٢) •

وبين هؤلاء المؤمنين يبرز مؤمن آل فرعون •• وهو
فرد واحد •• ولكنه على حد تعبير بعض الكاتبين :

قد ترى في حماسة فرد واحد ما يعديك •• ويستفرك
للخير •• بما يستجيش في صدرك من طاقات تفجرها
حكمته وسمته ••

ذلك الفرد الواحد •• الذي نفتقد اليوم قوته ••
وحكمته معا •• على طريق دعوة لم تنتشر يوما
الا بالحكمة والموعظة الحسنة ••

ان دعوتنا:

(٢) في ظلال القرآن •

موعظة تلمس القلب فيرق لها •
وبشارة بثواب يتقدم بالقلب خطوة أخرى •• ليعطى
الموعظة أقطاره كلها ••

وارشاد يأخذ بيد الضال الى حيث النور والقرار ••
وتذكير بنعم الله على نحو يثير الحياء فى النفس فتكف
الجوارح عن العصيان ••

ثم هى تخويف •• فى النهاية •• يضبط الخطو
المندفع حتى لا يضل •• هذه المعانى التى هى خلاصة
منهج المؤمن والتى نذكر بها حين نعرض لقصة مؤمن
آل فرعون • الذى كان ثمرة من ثمار الكلمة الطيبة على
لسان موسى عليه السلام •

منشأ العدوان :

قد يكون الانسان بطبعه متكبرا ••

ثم هو مع ذلك لا يؤمن بيوم الحساب ••

فاذا اجتمعت هاتان الخستان - بالتعبير المنطقى -
فانه يمضى فى ايدائه الخلق بلا حدود •• وبلا رادع
من ضمير ولا وازع من دين •

فما دام يظن نفسه فوق الجميع ••

وما دام لا يتوقع حسابا أو عقابا على خطاياہ ••

فان يده سوف تظل مبسوطة بالأذى كلما شاء له هواہ ••

ولن يتورع عن تليفيق التهم للأبرياء من الناس كوسيلة يحاول بها اخفاء ضعفه فى مواجهة الحق الذى يحس فى قرارة نفسه أنه أقوى منه . .

وهكذا كان فرعون الطاغية من حيث نشأة الطغيان عنده . . وفى موقفه من موسى عليه السلام ودعوته .

تهم مغرضة :

مع وضوح معجزات موسى عليه السلام فقد اتهموه بالسحر والكذب :

وتهمة السحر يراد بها التشويش على منطقته الواضح وموقفه القوى . والا . . فان المعجزات التى جاء بها تجعله عليه السلام أبعد ما يكون عن هذه التهمة النكراء . . ومع هذا فقد رموه بها شاهدين على أنفسهم بسوء النوايا . .

وحين يرمونه عليه السلام بالكذب وهو منه براء كذلك . . فانما يتم ذلك بدافع من احساسهم بصدقه . . بيد أنهم يحالون صرف الناس عن تصديقه لأن معنى هذا التصديق أن يقضى عليهم . وتنتهى دولتهم .

ولو أنهم رضوا عن أنفسهم بهذا الاتهام المغرض . . لو أنهم اقتنعوا بجدوى هذا التشويش على الحق لكفاهم أن يقولوا للناس هذا . .

ولكنهم - احساسا بضعفهم وتفاهة مقاتلتهم -
يلجأون الى القوة الغاشمة ردا على الحق الأعزل . .
وهو اجراء يلجأ اليه فرعون لاسكات فزعه النفسى
بهذه الضجة المفتعلة .

(وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى
أخاف أن يبديل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) .

وما كان جواب موسى عليه السلام الا اعلان
توكله على ربه سبحانه وتعالى . . فهو القادر وحده
على حماية عباده المؤمنين . . فى نفس الوقت الذى
يشير الى سر هذه النزعة العدوانية والتي
تتلخص فى :

★ داء الكبر .

★ وعدم الايمان بيوم الحساب .

(وقال موسى انى عدت بربى وربكم من كل متكبر
لا يؤمن بيوم الحساب) .

لقد كان فرعون يضمخ خوفه فى قرارة نفسه بهذه
الحركة المسرحية . وكأنما كان يقدر على قتله لكن
قومه يمنعونه . . وهو يقول لهم .

(ذرونى أقتل موسى . . .) .

ثم هو يعلن استهتاره وجحوده فيما حكى
القرآن عنه •

(وليدع ربه •••) ليفت بالاستهتار فى عضد

موسى •

وانه ليحاول حبك خطته اذ يثير عليه حفيظة الناس
بايهام أن موسى يريد تغيير مألوف حياتهم بهذا
الدين •• ويبذر بما جاء به بذور الفساد فى الأرض •
وعلى الجانب الآخر كان موسى عليه السلام
يستعيز بربه سبحانه •• ومعنى ذلك أن الرسول يخاف
على النحو الذى تفرضه الطبيعة البشرية •• ولا يقدر
ذلك فى رسالته ••

المهم •• أن الخوف لم يسقط به فى هوة اليأس ••
وانما ألجأه الى الله سبحانه ليستمد منه العون فى
معركة غير متكافئة ••

وتلك كانت سنة نبينا صلى الله عليه وسلم :

(عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم كان اذا خاف

قوما قال) :

اللهم انا نعوذ بك من شرورهم • وندراً بك فى

نحورهم (١) •

(١) سنن أبى داود • باب ما يقول اذا خاف قوما •

وقد سمعت من داعية ثقة يصوغ واحدة من تجاربه
فيما روى :

• أن بعض الناس يقول الكلمة لا تخدش ذنبا ••
يعرض بها رقبتة للقطع •• مجرد حماس قد يكون
مفتعلا •• يحمل بعض الناس على ركوب الشطط ••
وبدل أن يقدروا قواهم في مواجهة قوى البغى ••
يندفعون كالفراش يتهافت في لهب النار •• ولكن
السنة التي يزعم الاستمساك بها تؤكد غير ذلك تماما:

(أخرج البزار عن ابن عمر رضى الله
عنهما قال :

سمعت الحجاج يخطب • فذكر كلاما أنكرته •

فأردت أن أغير • فذكرت قول رسول الله صلى الله
عليه وسلم :

لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ••

قال : قلت يارسول الله كيف يذل نفسه ؟

قال : يتعرض من البلاء لما لا يطيق (١)

(١) راجع تفسير ابن كثير •

اقتراح القتل واتجاهات الناصحين :

عندما اقترح فرعون قتل موسى كانت آراء الناصحين من الحاشية على النحو الآتي كما أشار المفسرون :

١ - قال جماعة :

لا تقتله .. فهو أضعف من ذلك .. بالاضافة الى أن قتله سيجعل منه بطلا .. ويثبت في نفس الوقت عجزك عن مجادلته .

٢ - فيهم من كانوا يمنعونه من قتله لأنهم مؤمنون سرا . وقد دفعهم الحرص عليه الى كف يد الطاغية عنه ليبقى لهم .

٣ - ربما وجد بين القوم فئة ماكرة تعمل لحساب مصلحتها .. أرادوا أن يشغلوا فرعون بمعركة وهمية مع موسى ما بقى حيا .. ليخلو لهم الجو .. ثم لا يبقى لفرعون وقت يتفرغ فيه لحسابهم ..

وهكذا تفعل حاشية السوء في كل زمان وما كان ! وباستعراض هذه الاتجاهات ازاء هذا الاقتراح يتبين أن قوله : ذروني .. يشعر بأن هناك معارضة قوية لقتله .

لكنها مختلفة النوايا ..
وأيا ما كان الأمر :

فقد ربك موسى عليه السلام فرعون . . كما ربك
السحرة من قبل . . بل أحدث بين صفوف الصفوة
الحاكمة هزة باعدت بين آرائهم . . وفرقت جموعهم
فعجزوا عن اتخاذ قرار حاسم بشأن موسى عليه
السلام . . بل أنه عليه السلام ربك الأسرة الحاكمة
حين أيده الله منها بواحد من بينها . . ليقف الى جانبه
عليه السلام . . فكان ذلك من الله نصيرا مبينا . . ولن
يهز الشجرة الا فرع منها . .

وذلك مؤمن آل فرعون .

فمن هو ذلك الرجل ؟

بطاقة معرفة :

المشهور أن هذا الرجل - مؤمن آل فرعون - كان
قبطيا من آل فرعون . أو كان من البلاط الامبراطورى .

وقال السدى : كان ابن عم فرعون . وزاد بعضهم :

فقال : كان صاحب سره ومشورته (١) .

وهكذا تجيء القذيفة من منطقة الأمان . . لتكون
موجهة !

وسواء أكان قريبة . . أو مستشاره . فان ذلك

(١) راجع تفسير ابن كثير .

لا يخفى حقيقة ما ينطوى عليه الموقف من السخرية
التي يدبرها القدر الأعلى عندما ينتصر للدعاة
الضعاف ممن يدلون عليهم بالعدة والعدد !

وكما سخر الله تعالى من فرعون بتربية موسى
بالذات في قصره ٠٠ يسخر منه اليوم ان يخرج
من ذريته أو حاشيته من يتصدى له ويحبط كيده ٠٠

ولقد (انفعل فرعون بكلامه واستمعه ٠ وكف عن
قتل موسى عليه السلام) (٢) وتجدر الاشارة هنا الى
ما للكلمة من فعل السحر أحيانا ٠٠ وألفت نظر ذلك
الفتى الغيور والذي قاطع زميلا لى كان يخطب في
الناس فقال له :

لم يعد هناك فائدة للخطابة ٠٠ ان الشعب لا يصلحه
الا العصا !

وألفت نظر أمثاله الى طيبة هذا الشعب ٠٠ عندما
تستمد نسيجها من الحق الأعلى : انها تفعل الأعاجيب
وبها ينال الدعاة أضعاف ما ينالونه بالعصا ٠٠ وذلك
ما يتكفل ببيانه نهج هذا المؤمن في دعوته التي آتت
أكلها ٠٠ ووما تزال ٠٠

(٢) ابن كثير ٠٠ أمنت امرأة فرعون أيضا كما قال تعالى « وضرب
الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون »

الدعوة فى اطار الحكمة :

رغم أن الايمان هنا كان مكتوماً .. لكنه كان ايجابياً :

له دوره الفعال فى واقع الحياة كالبذرة تتوارى فى الأعماق لكنها فوق السطح تبدو خضرة وثماراً ..

ونتساءل : كيف استطاع هذا الفرد الواحد أن يسمع صوته من حوله والدولة كلها فى الجانب الآخر ؟ !

انها الحكمة الالهية توحى بها الآيات الكريمة وهى تروى قصة هذا الفتى المؤمن لتكون للدعاة اليوم مثلاً يحتذى ..

يقول الحق سبحانه :

(وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذباً فعليه كذبه وان يك صادقاً يصيبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب .

(يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا) .

يقول ابن كثير فى تفسيره .

(كيف تقتلون رجلا لكونه يقول : « ربى الله » وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق ؟ ثم تنزل معهم فى المخاطبة فقال : « وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم » .

يعنى : اذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به . فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه . فلا تؤذوه . فان يك كاذبا فان الله سبحانه سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة . وان يك صادقا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذى يعدكم .

فانه يتوعدكم ان خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة . فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا . فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له . بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه وقوله « ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » أى : لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله اليكم كاذبا . كما تزعمون لكان أمره بينا . يظهر لكل أحد فى أقواله . وأفعاله كانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب .

وهذا نرى أمره سديدا ومنهجه مستقيما .

- ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله
- وأرشده الى ما ترون من انتظام أمره وفعله
- ثم قال المؤمن محذرا قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم « يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض »

أى : قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض • فراعوا هذه النعمة بشكر الله • وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم • واحذروا نقمة الله ان كذبتم برسوله •

« فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا »

- أى : لاتغنى عنكم هذه الجنود • وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئا من بأس الله ان أرادنا بسوء (١) •

فقه الدعوة في منهج المؤمن :

١ - استعمل المؤمن هنا الترغيب والترهيب معا :

(أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ••)

(« يصبكم بعض الذى يعدكم » « فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ») فليس من الحكمة الوصول بالترغيب الى حد الابتذال •• ولا الوصول بالترهيب

(١) تفسير سورة غافر •

الى حد القسوة والضغط . . والتنفير . . وانما هي
المراوحة والتكامل فى محاولة الامساك بزمام النفس
الشرود .

٢ - شدة الانصاف فى عرض المؤمن :

(أ) قدم من شقى الترييد كونه كاذبا .

(ب) قال : « يصبكم بعض . . » مع أنه سيصيبهم
الكل . وذلك حتى لا يتهم بمحاباة أو ميل يعرقل سيره .

(ج) قوله : « من ينصرنا من بأس الله » نظم نفسه
فى سلكهم . وهو ليس معهم قطعا . وذلك تطيبيا لهم .
واشعارا بأنه مخلص فى نصحهم .

٣ - هناك من وراء السطور اشارات لأولى

الألباب من قوم فرعون :

(أ) مثل قوله « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله
وقد جاءكم بالبينات من ربكم » كأنه يقول لهم :

انكم تجعلون المانع مقتضيا !

أى تجعلون ما هو سبب لحفظ الحياة من الدين
العاصم . . ذريعة للقتل . . وذلك أمر لا يرضى به
عاقل يحترم عقله .

(ب) عندما قال « ان الله لا يهدى من هو مسرف
كذاب » كان يحرك العقول النائمة لتصحو حتى تستبين

حقائق الأشياء . . وترى شواهد هذا السرف والكذب
فى حياة فرعون . . كما سيشير اليه فى الآيات
من بعد .

(ج) عندما يركز على بطلان الجدل بغير حجة
تجذب ولا تقاوم . . يشير الى رغبته الملحة فى تخلى
قومه عن ذلك العيب بالتوجه الى القلوب بغية صقلها .
فرارا من طبع الله عليها . قبل أن تفقد حاسة التمييز
بين الحق والباطل .

جواب فرعون :

(قال فرعون) لقومه : ردا على ما أشار به هذا
الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من
فرعون :

(ما أريكم الا ما أرى) أى :

ما أقول لكم . وأشير عليكم الا ما أراه لنفسى .
وقد كذب فرعون :

فانه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من
الرسالة « قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء الارب
السموات والأرض بصائر » (١) .

(١) الاسراء ١٠٢ .

قال الله تعالى :

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما

وعلوا » (٢)

- فقلوه « ما أريكم الا ما أرى » كذب فيه وافترى
- وخان الله ورسوله ورعيته • فغشهم وما نصحهم
- وكذا قوله :

« وما أهديكم الا سبيل الرشاد »

- أى : وما أدعوكم الا الى طريق الحق والصدق
والرشد •
وقد كذب أيضا فى ذلك • وان كان قومه قد أطاعوه
واتبعوه •

قال تعالى :

« فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون

برشيد » (١)

« وقال تعالى : « وأضل فرعون قومه

وما هدى » (٣، ٢)

وهذا التهافت البادى فى رد فرعون •• يتضاءل

-
- (٢) النمل ١٤
 - (١) هود ٩٧
 - (٢) طه ٧٩
 - (٣) ابن كثير

أمام كلمة الحق على لسان المؤمن الحق .. وها هو
ذا الباطل يفرغ آخر سهم فى جعبته .. معلنا افلاسه ..
ولنتعلم نحن أيضا :

(وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ
الأسباب ..) وهكذا يفعل أعداء الحق دائما :

لقد حاول فرعون من وراء قتل أبناء بنى اسرائيل
الوقية بين الشعب والدعاة المخلصين .

ليتشاءم الناس من رسول الله موسى ومن دعوته
ولهذا قالوا :

(أو ذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) .

ثم هو اليوم بأمره هامان ليبنى الصرح يتقدم
خطوات أخرى على طريق الحرب المخادعة : انه يستتر
حياءه بما يشبه أن يكون رقصة الطائر الذبيح ..
محاولا ايهام الشعب القضاء على موسى وأنه يعمل
شيئا لتحقيق ذلك ..

ولكن موقفه عند النظرة الفاحصة يشير الى أن
محاولته :

- ١ - تمويه ومحاورة كى لا يواجه الحق جهره .
- ٢ - استهتار وسخرية .
- ٣ - تظاهر بالانصاف خداعا للجماهير .
- ٤ - خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن فى

• حديث الرجل المؤمن (٤) •

التاريخ يعيد نفسه :

(عن عمرو بن العاص أنه سئل :

ما أشد ما رأيت قريشا بلغوا من رسول الله صلى
الله عليه وسلم ؟

قال : مر بهم ذات يوم فقالوا له :

أنت تنهاننا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟

فقال : « أنا ذاك » •

فقاموا اليه • فأخذوا بمجامع ثيابه •

فرايت أبا بكر محتضنة من ورائه • وهو يصيح
بأعلى صوته • وان عينيه ليسيلان •• وهو يقول :

يا قوم « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم
بالبينات من ربكم » حتى فرغ من الآية كلها •••

••••• وهكذا أخبر الله عن موسى عليه السلام
أنه طلب من قومه الموادة في قوله : « ولقد فتنا قبلهم
قوم فرعون وجاءهم رسول كريم • أن أدوا الى عباد
الله انى لكم رسول أمين وألا تعلوا على الله انى

(٤) راجع فى ظلال القرآن •

أتيكم بسُلطان مبین • وانی عدت بربی وربکم أن
ترجمون • وان لم تؤمنوا لی فاعتزلون •

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقريش
أن يتركوه يدعو الى الله عباد الله • ولا يمسوه
بسوء • وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك
أذيته • قال الله تعالى :

« قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في
القربى » « أي :

الا أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة •
فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس • وعلى هذا
وقعت الهدنة يوم الحديبية • وكان فتحا مبينا (١) •
وهكذا فعل بالدعاة عبر التاريخ ••

وهكذا أيضا كانت الحكمة أسلوبهم في تناول
الأمور تناولا يمكنهم من الاستمرار في الدعوة
بلا عوائق •• واذا كنا نشدد النكير على ما يفعل
بالدعاة عبر التاريخ •• فيجب أن ينصب كفل من هذا
النكير على دعاة يزايلون الحكمة •• ويركبون
العنف فكانوا كالنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى •
ونحن محتاجون الى صياغة مثل هذه القدوة في

(١) ابن كثير •

مجال الدعوة ليحيى الله بها قلوبا عليها أقفالها . .
ويكفى الدعوة شرفا أن تشكل بالحكمة مثل هذا
النموذج . . يراه الناس . . وعلى منواله ينسجون :
يقول الأستاذ محمد الراشد :

(الحقيقة أنه - وان افتقد الدعاة فى هذا القرن
صورة حكم اسلامى يصلح مثلا لتطبيق الاسلام -
الا أن هذا المثل يمكن أن يتجلى فى بضع أشخاص من
الدعاة . تتضح فيهم معانى الاسلام . ويكتسبون من
هيئته . ويبلغون الذروة فى الايمان والتجرد . وتطبيق
السنة الشريفة .

وهذا هو معنى القدوة فى صورتها البسيطة :

ان وجود القدوة الاسلامية يعنى وجود شخص
يدرك الناظر اليه أنه مستقل فى فكرته وعقيده .
وسكناته وحركاته . عما حوله وعمن حوله . منفصل
عنهم . تميزه الابصار قبل المعاملة . بما تعلق وجهه
من معالم السكينة والهيبة والحزم التى شاء أن ينفرد
بحيارتها المسلم دون غيره .

فيعوض بذلك عن صورة الحكم الاسلامى المفتقد .
ويكون بديلا لها . وبرهانا على أن الاسلام قادر
أن ينتج مثل هذه النماذج الانسانية الرفيعة .

أو بالأخرى : يكون برهاننا على أن مثل هذه النماذج لا ينتجها غير الاسلام (١) .

فاذا اتسعت الدائرة . . وأثمرت الحكمة قاعدة من الدعاة المخلصين كان مجرد وجودهم وتعاونهم على البر والتقوى طريقا أمام أجيال تدخل في دين الله أفواجا . يقول الرازي :

(ان الأرواح القوية الطاهرة اذا تطابقت على همة واحدة . قوى ذلك التأثير جدا) .

وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلوات في الجماعات) .

مع العلامة « أبو الحسن الندوى » :

في مقال بمجلة البعث الاسلامي (١) تحدث العلامة أبو الحسن الندوى عن منهج مؤمن آل فرعون في الدعوة الى الله . . وكيف انتصر بالحكمة على فرعون وقومه .

٢٠١

تساءل الندوى قائلاً :

في أية مدرسة تعلم مؤمن آل فرعون الحكمة ؟

(١) الرقائق ١٥٦ .

(١) جمادى الثانية ١٤٠٢ .

وأجاب :

فى مدرسة الايمان !

- وقد منحه الايمان حكمة ملك بها زمام الموقف
- وقد بدا ذلك فى السبيل الذى سلكه فى الاقناع
والذى يتلخص فيما يلى :

(أ) الاحتجاج بالمشهود :

• (وقد جاءكم بالبينات من ربكم ••)

• (أخرج يده فاذا هى بيضاء ••)

(ب) وبسنة الله الماضية :

(لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن

ينصرونا من بأس الله ان جاءنا) •

(ج) الاعتبار بالتاريخ :

•• (انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) ••

(د) التذكير بالآخرة :

• (ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد) •

يوم تولون مدبرين لا تجدون ملجأ •• بعد أن كنتم

فى الدنيا ملجأ الناس !

• (هـ) التذكير بظاهرة مرضية

• فى المجتمعات : نسيان النعمة

ثم تحاولون قتل الذى يؤمن بالرب الحقيقى اذى
خلق فسوى ؟ !

استراتيجية الطغاة :

استئثار فرعون فى نفوس الشعب أمرين :

١ - العقيدة ٠٠ ولها قد استتها فى النفوس وأن
كانت فاسدة ٠

(انى أخاف أن يبدل دينكم) ٠

٢ - نشر الفساد والذعر بين صفوف الأمة ٠٠
وكل انسان يحب وطنه ٠ ويخاف عليه من الفوضى ٠
(٠٠ أو أن يظهر فى الأرض الفساد) ٠

وفى كتاب المثل السائر لابن الأثير طرف من هذا
المنهج الراشد فى الدعوة الى الله بالحكمة التى يحقق
بها الدعاة أهدافهم : يقول ٠

(وهو من مضادعات الأقوال التى تقوم مقام
مضادعات الأفعال ، والكلام فيه ، وان تضمن بلاغة
فقط ، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة فى
استدراج الخصم الى الازعان والتسليم ، واذا حقق
النظر فيه ، علم أن مدار البلاغة كلها عليه ، لأنه
لا انتفاع بايراد الألفاظ المليحة الرائقة ، والمعانى

اللطيفة الدقيقة ، دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض
المخاطب بها .

والكلام فى مثل هذا ينبغى أن يكون قصيرا فى
خلافه ، لا قصيرا فى خطابه وقد ذكرت فى هذا
النوع ما يتعلم منه سلوك هذا الطريق فمن ذلك
قوله تعالى :

«وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون
رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ،
وان يك كاذبا ، فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم
بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهدى من هو مسرف
كذاب . »

ما أنصف هذا الكلام والطفه فانه أخذهم بالاحتجاج
على طريقة التقسيم ، فقال : لا يخلو هذا الرجل من
أن يكون كاذبا ، فكذبه يعود عليه ولا يتعداه ، أو يكون
صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان تعرضتم له
وفى هذا الكلام من حسن الأدب والانصاف ، ما أنكره
لك فأقول : انما قال يصبكم بعض الذى يعدكم ، وقد
علم أنه نبى صادق وان كل ما يعدهم به لابد أن
يصيبهم كله لا بعضه ، لأنه احتاج فى مقابلة خصوم
موسى عليه السلام ، أن يسلك معهم طريق الانصاف
والملاطفة فى القول ، ويأتيهم من جهة المناصحة ،
ليكون أدعى الى سكونهم اليه ، فجاء بما علم أنه

أقرب الى تسليمهم لقوله ، وأدخل فى تصديقهم اياه ، فقال وان يك صادقاً يصبك بعض الذى يعدكم ، وهو كلام المنصف وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادقاً فى جميع ما يعد به . ولكنه أردف بقوله : يصبك بعض الذى يعدكم ليهضم بعض حقه فى ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً ، فضلاً عن أن يتعصب له . وتقويم الكاذب على الصادق من هذا القبيل كأنه يرطلهم فى صدر الكلام بما يزعمونه لئلا ينفروا منه .

ومما يجرى على هذا الاسلوب قوله تعالى :

« واذكر فى الكتاب ابراهيم ، أنه كان صديقاً نبياً ، اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً ، يا أبت ، انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت ، لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . »

هذا الكلام يهز أعطاف السامعين ثم أخذ يشرح الاستدراج فى هذه الآية الكريمة ، وهو واضح للتأمل البصير .

وترى من هذا كله كيف يتخذ الاستدراج طريقاً

لإثبات المدعى ، وذلك بأن يبدأ الخطيب فى القاء الريب فيما عليه من يخاطبهم ، ثم يلقى اليهم ببعض ما تنتجه الأدلة مغضيا النظر عن النتائج الحقيقية السليمة التى تنتجها البراهين ، حتى اذا اطمأن الى أنه قد أخذ بزمام الجماعة يقودها حيث يشاء ، ألقى اليهم بالنتائج كلها لبراهينه . والاستدراج كما رأيت يكون فى المقامات الخطابية التى يكون الخطيب فيها متصديا للدعوة لأمر لم تألفه الجماعة ، أو لفكرة تناقض أمرا اتفقت عليه (١) .

نصيحة الى الشباب :

ان كثيرا من الشباب اليوم يتجهون الى العمل اليدوى حرفة شريفة . . وبذلك يطبقون العلم فى مجالات تحقق سعادتهم وسعادة وطنهم ورفعة دينهم . . بعيدا عن المراء السقيم العقيم . .

وهم فى معركتهم تلك الصامته يحاربون الجشع والاستغلال :

فالشباب الذين يصلحون ما أفسد الدهر من مرافق البيوت . . لا يحصلون فقط على ربح . . وانما يطردون من السوق : العملة الرديئة . . هؤلاء الذين

(١) الخطابة ١٠٨ : ١١٠ .

يستغلون حاجة الناس .. ولا يرحمون ضعفهم ..
وتلك صورة عليا من صور العبادة .. صورة تأخذ
بعدا آخر لو تصورنا أنها تخذل الباطل في نفس
الوقت .. لأن أعداء الاسلام بعد أن فشلوا في فرض
ارادتهم بقوة السلاح .. حاولوا استعبادنا عن
طريق صناعاتهم التي يقوم هؤلاء الشباب
بمسئولياتها .. لحرمان الاعداء من التسلط علينا ..

(لقد تحورت اليوم معظم بلاد المسلمين بعد دفع
تضحيات منقطعة النظير .. لكن قدر عالم الاسلام لم
يتحرر في حقيقة الأمر . فالغرب لا يزال جاثما على
صدورنا (١) . وهو الذى يحكمنا مباشرة أو بصورة
غير مباشرة وهو الذى يثير الثورات ويمول الردة
وهو الذى يدفعنا للاقتتال . ونحن - وان لم نكن نعانى
من الظروف الداخلية القاسية التى نعانى منها بالفعل -
لا نملك أمرنا ، فان السيطرة العلمية والصناعية
لشعوب الغرب تكفل لها السيطرة على عالمنا بأسلوب
غير الأسلوب القديم . وهذا الأسلوب الجديد هو عقد
المعاهدات التجارية والمعونات الاقتصادية التى لا تقل
فداحة نتائجها عن النظام الاستعماري القديم
في شئ .

(١) تغيرت الصورة اليوم تماما .

ان هذه الحالة التي انتهينا اليها تبين لنا أنه كانت هناك ثغرة فى برنامج كفاحنا الطويل فلو ظل كفاحنا على الطريق الصحيح لما واجهنا هذه الظروف القاسية الحزينة التي نواجهها اليوم رغم تقديمنا كل تلك التوضيحات .

أين كانت تلك الثغرة ؟ ان الثغرة تكمن فى أن الحركات الاسلامية التي قامت ضد سيطرة الغرب لم يكن لديها العرفان الكامل عن نوعية العدو الذى تواجهه . لقد كانوا يظنون أنه ما عليهم سوى طرد الأجانب المستعمرين من البلاد ولكن هذه الحركات أهملت دراسة الأسباب التي مكنت السيطرة الأجنبية من التغلب على مقاومتنا . لقد ذهبنا ندرس الآداب واللغات الأوروبية بينما أهملنا كليا فى وقت من الأوقات العلوم الأوروبية التي مكنت المستعمرين من تحطيم مقاومتنا . وحدث كذلك أن هذه الحركات العظيمة لم تتمكن من تحضير شعوبنا لمواجهة الظروف التي نشأت من الرحيل الصورى للاستعمار عن أراضينا . لقد جلسنا ننفخ فى الأبواق ابتهاجا برحيل المستعمر . واذا به يدخل بيوتنا من أبواب غير الأبواب التي خرج منها (١) .

يقول الشيخ محمد الغزالي في نصيحة تتضح بها معالم الطريق :

(لكى تنجح الدعوة لابد من توفر أمرين ، أولهما الذكاء الحاد ، والثانى الاخلاص العميق ، وأعنى بالذكاء الاستنارة العقلية التى تجعل الانسان يدرك الواقع ادراكا سليما ، وكذلك الاسبحار الفقهى ، الذى يمكن الداعية من اصدار حكم صحيح على الأمور التى تعرض عليه .

أما الاخلاص ، فأعنى به النية الخالصة التى تتحرى وجه الله وترفض التأثير بأحوال الناس ، كما رفض التأثير بالدوافع النفسية الرديئة ، من حب المظهر أو حرص على المنفعة ، فاذا فقدت الدعوة هذين الأمرين أو أحدهما ، فإن نجاحها يكاد يكون متعذرا ، وقد لاحظنا أن هناك ناسا يفقدون القدرة الفقهية ، وتراهم يجمعون بين رذيلتين :

عدم فهم الاسلام فهما شاملا ، يستوعب شعب الايمان السبعين ، فهم ينحصرون فى شعب معينة لا يعرفون ما وراءها ، كما يجهل البدوى أن هناك علا آخر وراء خيمته وشاته .

ثم هم مع هذا النقص الفقهى ، لا يعرفون النسبة القائمة بين شتى الشعب فلا يفرقون بين رأس وذناب ،

ولا بين شكل وموضوع ، وينشأ عن هذا التخبط أن الواحد من هؤلاء قد يقاسى من أجل ناغلة ، فى الوقت الذى يضيع فيه الفريضة . وما أشك فى أن مصاب الاسلام من هؤلاء فادح ، لأنهم قد يخلصون مع جهل أو قد يعلمون مع غش . ولا يصلح أمر الاسلام ولا تنجح دعوته بهذا التصور ، ولنذكر الحديث الشريف .

(فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد) .

هذا هو السر ، فى أننا حذرنا المسلمين من دعاة متعصبين تنقصهم سعة العلم . أو من علماء متعمقين تنقصهم النية الصالحة .

لو أننا نعرف ديننا معرفة جيدة ، لعرفنا الخاصة الأولى فى تعاليمه ، وهى السماحة والاعتدال ، فان النبى صلى الله عليه وسلم ، بعث بالحنيفية السمحة ، وكان اذا أرسل رجاله يدعون الى الاسلام ، أمرهم بابرار هذه الخاصة فيقول لهم يسروا ولا تعسروا . بشروا ولا تنفروا . وكان صلى الله عليه وسلم فى سيرته الخاصة ، معروفا بهذه السهولة فى مسلكه . فما خير صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار أيسرهما مالم يكن اثماً . فان كان اثماً كان أبعد الناس عنه .

ويوجد الآن بيننا منتمون الى الاسلام ، يناقضون
بفتاواهم وقضاياهم وسيرهم الخاصة والعامة ، هذه
السنة النبوية فهم ما خيروا بين أمرين ، الا اختاروا
أصعبهما . وما قدموا الاسلام الى الناس ، الا مقرونا
بالشدة والعنف ، وتجسيم الأمور الثانوية ، وهؤلاء
لا يعرفون حقيقة الاسلام ، بل لا يدركون معنى
الفطرة ، التي يقوم عليها هذا الدين . وقد وجدت
بعضهم فى عواصم الغرب يقدمون الاسلام ، على
انه أكل بالاصابع ، فاذا أكل أحد بأداة أخرى فالويل
له . . أو يقدمه شربا عن قعود ، فاذا شرب وهو قائم
فالويل له .

وتشبت هؤلاء بمثل هذا - ولا ننكر أنه سنة ينبغى
العمل بها - يسبق تشبثهم بالأصل ومعاهد الايمان .
ويشبه مسلّم مسلّم الذين تحدثوا فى سنة رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يصوم ويفطر
ويقوم وينام . . لانهم ما يرون الدين الا صياما للأبد
وقياما للأبد . وتشددوا فى معالجة الامور كلها .

ان بعض الشباب المتحمس ، قد يجمع به الغلو .
وقد نتغاضى قليلا عن هذا الغلو حتى يعقل أصحابه
أمر دينهم ، فاذا عقلوا واعتدلوا كان بها ، والا فان
الغلو فى الدين مزلة الى الافلات منه وتوركه نهائيا .
وقد حرم الاسلام بنص وأوجب بنص . ولا يقبل من

أحد أن يزيد من أمره ونهيه وفق هواه ، بل عليه أن يتبع أحكام الاسلام التي مهد لها الفقهاء وعرفوا الجماهير بها . وبهذا المسلك نحسن الى أنفسنا وإلى ديننا ، ونخرج الشباب من الحيرة التي يحسها وهو يستمع الى أصوات كثيرة تناديه ، بفعل ما يشق عليه أو تركه ، وإن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه (١) .

محتويات الكتاب

صفحة	الموضوع
٣	دعاة يخسرون القضية
٨	حاجتنا الى الدعوة
١٠	آراء المتشائمين والمغرضين
١١	رأى أبو العلاء
١٥	شواهد من السنة
٢٢	وقفه مع المفكرين الغربيين
٣٣	دعوة موسى عليه السلام
٣٦	الدروس المستفادة من قصة موسى وفرعون
٤١	التزود لرحلة الكفاح
٤٦	معنى دعاء موسى
٥٨	التناصر من أجل الدعوة
٦٢	هل تجوز الاستعانة بالغير
٦٥	دلالة الأمر بالمعروف
٦٨	ما هو القول اللين ؟
٨٠	تراجع فرعون
٨٢	ايمان السحرة
٨٣	ضرورة الحذر
٩٢	حكم القاء السلام على الكافر
٩٧	الترهيب
٩٨	من أساليب الطغاة
١٠٢	نور الأنبياء في كل عصر
١٠٥	الدعاة وعقدة الحكام
١٢١	تهم مغرضة
١٢٥	اقتراح القتل واتجاهات الناصحين
١٢٨	الدعوة في اطار الحكمة
١٣٠	فقه الدعوة في منهج المؤمن
١٣٨	مع العلامة أبو الحسن الندوي
١٤٤	نصيحة الى الشباب

الطبعة الأولى: ١٩٨٢م - ١٩٦٢هـ

١٥١ - ٢٧ - ١٩٨٢

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

١٩٨٤/٣٤١١ م

دار الثقافة للطباعة والنشر
٢١ شارع كامل صدقي بالفجالة
تليفون ٩١٦٠٧٦ - القاهرة